12117

مكتبة البنين
قسم الدوريات

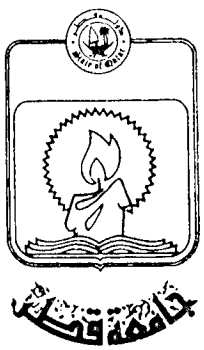

حولية كلية الشريعة والقانون والدراسات الإسلامية

العدد السادس عشر ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

وظيفة الاستخلاف في القرآن الكريم

دلالاتها وأبعادها الحضارية

د. محمد زرمان

أستاذ الفكر الإسلامي والدراسات القرآنية

معهد اللغة العربية وآدابها

جامعة باتنه - الجزائر

وظيفة الاستخلاف في القرآن

دلالاتها وأبعادها الحضارية

أهمية الاستخلاف:

إن الخلافة في الأرض هي المهمة التي انتدب الله لها الإنسان ، وجعل تحقيقها تحقيقاً للغاية من وجوده ، وهي تتضمن مسؤولية عظيمة، تتمثل في تمكين الإنسان من أمانة الأرض وناصية الكون، وتسخيره له ، ليكون سيداً عليه، مالكاً لمفاتيحه، متصرفاً في شؤونه ، مستغلاً خيراته، منفذاً فيه إرادته بالتعمير، والتغيير، والترقية ، والتطوير.

وقد أكدت الآيات الكريم عظمة هذه المسؤولية ، وثقل الأمانة التي أنيطت بالإنسان وعجز سائر الكائنات والمخلوقات عن حملها ، والوفاء بحقها ، فقال الله عز وجل منبهاً إلى جسامة هذا التكليف الرباني: ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً﴾[1].

وتخصيص الإنسان بالاستخلاف دون سائر المخلوقات الأخرى من ملائكة وجن وغيرهم ، يوحي بأنها درجة وجودية عليا بين المخلوقات ومركز كوني سام ومرموق [2] ، خص به آدم وذريته من دون الخلق جميعاً للإشراف على رعاية شؤون عالم الشهادة، وتدبير أمر الإنسان، والسير بالبشرية في الطريق المرسوم للخلافة الربانية[3]، يدل على ذلك استشراف الملائكة لهذه الوظيفة، ومجادلتهم لله تعالى في اختيار الإنسان لها، ثم إنابتهم وسجودهم لآدم ، وحقد إبليس وحسده لآدم ، ورفضه السجود له بسبب هذا التفضيل والتكريم،

---

(١) الأحزاب: الآية ٧٢.

(٢) دسوقي . د. فاروق أحمد ، استخلاف الإنسان في الأرض، ص١٠.

(٣) الصدر. محمد باقر، خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء ، ص١٠.

مما أدى إلى طرده من رحمة الله ، واستحقاقه اللعنة إلى يوم الدين.

وسجود الملائكة لآدم لم يكن سجود عبادة، بل كان بمثابة إقرار، واعتراف لآدم بأحقيته في خلافة الأرض،كما يتضمن أيضاً تفضيل الإنسان على سائر المخلوقات، تقديراً لما أودع الله فيه من سر المعرفة التي ترفعه فوق مرتبة الملائكة ويعد هذا السجود من أروع صور التكريم وأعلاها. من هنا جمعت الخلافة بين كونها شاقة وثقيلة، وكونها متميزة وخاصة تتضمن كل معاني الرفعة والتشريف، والتكريم ، والتفضيل.

وقد شاءت إرادة الله أن يرتبط مصير الإنسان ومآله بمدى قيامه بمتطلبات هذا الاستخلاف، ووفائه بمسؤولياته الجسيمة في عالم الشهادة، فإذا غفل عنه، أو فرط فيه، أو نكس عن أداء ما استؤمن عليه، يكون بذلك قد تخلى عن مهمته الحقيقة، وألغى جانباً كبيراً من طبيعته وفقد كثيراً من خصائصة، لأن القيام بأعباء الاستخلاف في جانبيه الروحي والمادي طبع مركوز في الإنسان، مفطور عليه، مدفوع إليه بالجبلة، وأداؤه لهذا الوظيفة الاستخلافية هو الذي يعطي لحياته على وجه الأرض هدفاً ومعنى، ويمكنه من صنع تاريخه وتحقيق رسالته في الوجود كما أرادها الله.

وقد حفلت الآيات القرآنية بالحديث عن هذه الوظيفة الاستخلافية ، وما تقتضيه من حق التصرف، وأهلية المسؤولية، وما تلقيه على الإنسان من تبعات جسام، أعفيت منها كل الكائنات الأخرى. كما أسهبت في تذكير الناس بالجانب التشريفي والتكريمي لهذه المهمة، وقد جاء التعبير عنها بمصطلحين اثنين هما: الأمانة والخلافة. والمصطلح الثاني (الخلافة) و(الاستخلاف) أغلب على النصوص القرآنية من مصطلح الأمانة، لذلك سنحاول في هذا البحث التركيز على مصطلح الاستخلاف محللين أبعاده ومدلولاته في ضوء الخطاب القرآني.

مقدمة عن مصطلح «الاستخلاف»:

ورد مصطلح الاستخلاف في القرآن الكريم بصيغ مختلفة منها: استخلف،خليفة، خلائف، وغيرها. ومن النصوص القرآنية التي تحدثت عن

الاستخلاف قوله تعالى: ﴿هو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم ، إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم﴾[1]

﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنَّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكننَّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنَّهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾[2].

﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾[3].

﴿هو الذي جعلكم خلائف في الأرض، فمن كفر فعليه كفره، ولايزيد الكافرين كُفْرُهم عند ربهم إلا مقتا ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا﴾[4]

ولا يفوت القارئ لهذه الآيات الكريمة أن يلاحظ أنها تدل كلها على معنى واحد، هو بيان كون الخلافة بأبعادها ومدلولاتها الحضارية هي الوظيفة الوجودية للإنسان في الأرض التي من أجلها خلق، وبها فضل على كثير ممن خلق الله تفضيلا : ﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيِّبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾[5]، فما هي هذه الوظيفة الاستخلافية التي استحقت كل هذا التقدير والتنويه؟

الاستخلاف، مفهومه وحقيقته:

كلمة الخلافة في اللغة مشتقة من: خَلَفَهُ يَخْلُفُهُ إذا قام بالأمر عنه، فهي نيابة أو وكالة عن الغير«إما لغيبة المنوب عنه، وإما لموته، وإما لعجزه، وإما

---

(١) الأنعام: ١٦٥

(٢) النور: ٥٥

(٣) البقرة: ٣٠

(٤) فاطر: ٣٩

(٥) الإسراء : ٧٠.

لتشريف المستخلف»[1]، وعليه فإن المعنى الذي تتضمنه كلمة الخلافة في الآيات السالفة الذكر هي أن الله سبحانه وتعالى قد أناب عنه الإنسان في هذا الوجود ليتصرف في مملكته الكونية طبقاً لحق الاستخلاف الذي وهبه إياه[2]، وهذا هو المعنى الذي أشار إليه العلماء، ومنهم «أبوالسعود» الذي ذكر في تفسيره أن معنى الخلافة هو«خلافة من جهة الله سبحانه في إجراء أحكامه»[3] وابن عاشور الذي قال إن «المراد من الخليفة المعنى المجازي، وهو الذي يتولى عملاً يريده المستخلف مثل الوكيل والوصي، أي جاعل في الأمر مدبراً يعمل ما نريده في الأرض... فالخليفة آدم، والمراد بخلفيته قيامه بتنفيذ مراد الله»[4]، [5].

وكلمة الخلافة تعبر عن وجود علاقة بين أطراف مختلفة، وعناصر أساسية تتكامل فيما بينها لتحقق مفهوم الخلافة وهي: المستخلِفُ، وهو الله، والمستخلفُ وهو الإنسان، والمستخلف فيه وهي الأرض، والمستخلف عنه وهو المنهج الإلهي، أي مضمون الاستخلاف.

ومن ثم ، فالخلافة هي تكليف إلهي للإنسان ليباشر مهمة الإعمار والبناء في الأرض وفق إرادة الله لتتحقق بذلك العبودية الكاملة لله في هذا الكون.

لكن استخلاف الإنسان في الأرض، ومنحه مطلق السيادة على الكون لا يعني أنه مالك له وإن كان سيداً عليه. فهو ليس حاكماً بالأصالة، وإنما حاكم بالتفويض، أي أن الله تعالى أطلق يده بالتصرف في الأرض للقيام بأعباء أمانة الاستخلاف، وهو ما توحي به كلمة «الخليفة» التي تعنى في جملة ما تعني النيابة أو الوكالة. وعليه، فهو غير مخول أن يسير فيه بهواه منفصلاً عن توجيه

---

(١) الأصفهاني. الراغب، معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص١٥٧

(٢) المودودي. أبو الأعلى، نظام الحياة في الإسلام، ص ٢٣، ٢٤.

(٣) أبوالسعود. محمد العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ج١ ص١٠٠.

(٤) ابن عاشور. محمد الطاهر، التحرير والتنوير، ج١ ص٣٧٦

(٥) عبارة أن الله تعالى أناب عنه الإنسان في هذا الوجود ...إلخ موهمة، وليست مطابقة لما ذهب إليه العلامة أبوالسعود والشيخ ابن عاشور. ولم يتلق العلماء ما ذهب إليه أو عبّر عنه الأستاذ المودودي بالقبول (الحولية).

الله سبحانه وتعالى لأن هذا يتنافى مع طبيعة الاستخلاف. بل يجب أن تكون حركته الحضارية موافقة لأوامر الله ونواهيه، وبذلك تصبح الخلافة: «استئماناً على الكون والطبيعة والبشر، ولهذا وصفها القرآن الكريم في إحدى آياته بالأمانة، فالإنسان الخليفة مؤتمن، وكذلك مجتمع الخلافة، وجوهر الأمانة هو رعاية تلك القيم الخيرة التي ينطوي عليها المشروع الحضاري الإسلامي»[1].

فجوهر الاستخلاف أن يظل الإنسان الخليفة مرتبطاً بمن استخلفه ارتباطاً مستمراً، وأن يجتهد اجتهاداً دائماً للاقتراب منه، وذلك بالعمل الدائب، والكدح المستديم لترقية ذاته وتنميتها[2]، حتى يتمكن من تحقيق مستويات راقية من الاستخلاف.

كما أن الخلافة التي أناطها الله بآدم عليه السلام ليست وقفا على شخصه فقط، وإنما هي تمتد لتشمل النوع الإنسان الذي سيتفرع عن آدم منذ بدء الخليفة إلى نهاية الدنيا، والذي سيكون مكلفاً أيضاً بحمل مسؤولية الاستخلاف كما بين ذلك الزمخشري في قوله: «أريد بالخليفة آدم، واستغنى بذكره عن ذكر بنيه كما يستغنى بذكر أبي القبيلة في قولك مضر وهاشم» [3]، مما يدل على أن الله سبحانه وتعالى قد أناب الجماعة البشرية في قيادة الكون وإعماره اجتماعياً وطبيعياً[4]

وعليه، فالإنسان وحده هو المكلف بالقيام بمسؤولية الخلافة في الأرض وتحمل أعبائها، وهو الوحيد الذي سيحاسب على ذلك، على الرغم من أنه لا يسكن الأرض وحده، ففيها الجن كذلك، وهم خلق مبتلى ومكلف بالعبادة مثله [5] لكنه لا يمتلك الطاقات والمواهب التي يتميز بها الإنسان لإعمار الأرض، فهما -وإن اشتركا في عبادة الله وطاعته- إلا أن الخلافة تبقى من

---

(١) الصدر. محمد باقر، الإسلام يقود الحياة، ص١٥٤

(٢) النجار. عبدالمجيد، «الإنسان في القرآن». الموافقات، ع٣، جوان ١٩٩٤، ص٥٥.

(٣) الزمخشري ، الكشاف عن حقائق التنزيل، ج١ ص٢٧١.

(٤) الصدر. محمد باقر، خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء، ص١٠.

(٥) دسوقي. د. فاروق أحمد، استخلاف الإنسان في الأرض، ص٥.

اختصاص الإنسان وحده.

ثم إن الخلافة في الأرض غير مرتبطة بمدة معينة، ولا خاصة بعصر من العصور أو زمن من الأزمان، بل هي صيرورة دائمة، تنساب مع الإنسان على مر التاريخ منذ ميلاده إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها.

فهي تبدأ لتنتهي مع عمر جيل من أجيال الإنسانية، وتنتهي لتبدأ مع جيل جديد، وهكذا تظل في ديمومة صاعدة، لأن الله قدر للأرض جميعاً أن تبقى معمورة ،وأن يظل الإنسان يكدح فيها حتى توفي أجلها: «فمن سنن الله ونواميسه الكونية في هذه الحياة الدنيا أن تظل هذه الأرض معمورة بأهلها، ماضية في أخذ زينتها وزخرفها، خاضعة لسنة التطور حتى يأتي وعد الله، وتحين الساعة المحتومة المحددة لقيام الساعة . . فلابد من أمم وجماعات تقود حركتها المعاشية والعمرانية والاجتماعية. . تتداول فيما بينها قيادة هذه الرحلة الإنسانية، حتى تبلغ مداها الأخير في علم الله عز وجل»[1].

وخلاصة القول أن عملية الاستخلاف في القرآن الكريم حركة إنسانية إيجابية، فاعلة، دائبة، مستمرة، ومتناغمة مع سنن الأنفس والآفاق يسعى الإنسان من خلالها إلى ترقية حياته الروحية والخلقية، وتسخير كل مظاهر الكون الفسيح، والانتفاع بها، وتوجيهها لخدمته وخدمة بني جنسه رغبة في إقامة حضارة إنسانية في ظل منهج العبودية لله الذي تنتفي معه كل مظاهر الخلل والفوضى والاضطراب.

العبادة أساس الاستخلاف:

إن الآيات القرآنية الكريمة التي تتحدث عن خلق الله للكون والإنسان صريحة في نفي العبثية عن هذا الخلق، لأن القول بخلق الكون والإنسان سُدىً يتنافى مع صفاته العليا سبحانه وتعالى، ويتعارض مع كماله المطلق، وإرادته المنزهة عن الفوضى، مما يؤكد -في المقابل- وجود حكمة عليا منه، تعلل نظام الكون وتناسقه، وتسوية الإنسان في أحسن تقويم، والنصوص القرآنية الدالة

(١) البوطي. محمد سعيد رمضان، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، ص١٧٥.

على ذلك كثيرة منها قوله تعالى: ﴿أيحسب الإنسان أن يترك سدى﴾[1] وقول عز وجل وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار﴾[2] وقوله عز من قائل: ﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ماخلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾[3] وقوله أيضاً: ﴿ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى والذين كفروا عما أنذروا معرضون﴾[4] وقوله: ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لاترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم﴾[5].

ففي هذه الآية الأخيرة استفهام استنكاري ينفي أن يكون الوجود الإنساني على الأرض عبثاً بلا غاية، ويؤكد أن ما فضل الله به الإنسان من قدرات ومؤهلات، وما ميزه به من تكريم له غاية جليلة، وهدف عظيم لا يجوز أن يغفله الإنسان.

وقد وضح القرآن الكريم الحكمة الجامعة من الخلق في قوله جل وعلا: ﴿وما خلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون﴾[6]، حيث أكدت الآية الكريمة أن الغاية الجليلة التي وجد لأجلها الجن والإنس هي تحقيق العبودية لله سبحانه وتعالى بالخضوع له في سائر الأحوال، والإنابة إليه، والالتزام بأوامره ونواهيه، والاعتراف بفضله، والاحتكام إليه في جميع ما يعرض له في هذه الحياة من مواقف، وذلك بما تضمنته من النفي والاستثناء اللذين يعدان من أقوى صور الحصر والقصر، وبذلك تكون الآية قد نفت كل غاية للوجود الإنساني غير العبادة وحصرت -في الوقت ذاته- غاية هذا الوجود كله في

---

(١) القيامة: ٣٣

(٢) ص: ٢٦

(٣) الدخان: ٣٦ ، ٣٧.

(٤) الأحقاف: ٢.

(٥) المؤمنون: ١١٥ ، ١١٦.

(٦) الذاريات: ٥٦

عبادة الله[1].

فتخصيص العبادة بالذكر دليل على أنها العلة الكبرى في خلق الإنسان، قال الزمخشري في تفسير هذه الآية: «أي وما خلقت الجن والإنس إلا لأجل العبادة» [2]، وقال ابن عاشور «اللام في ﴿ليعبدون﴾ لام العلة أي ما خلقتهم لعلة إلا علة عبادتهم إياي، والتقدير: لإرادتي أن يعبدون» [3]، ثم يضيف قائلا: «فلا جرم أن الله أراد من الشرائع كمال الإنسان، وضبط نظامه الاجتماعي في مختلف عصوره، تلك حكمة إنشائه . . . فعبادة الإنسان ربه لا تخرج عن كونها محققة للمقصد من خلقه وعلة لحصوله عادة» [4]، وقد أكدت كثير من الآيات القرآنية على العبادة، وأسهبت في إبراز دورها الأساسي في عملية الاستخلاف، وأكدت أنها قوام الاستخلاف وعماده والمحور المركزي الذي تدور عليه العملية الاستخلافية كلها.

والعبادة عهد قديم أخذه الله على بني الإنسان في الأصلاب قبل مولدهم، قال تعالى: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريّتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا﴾[5] فالإحساس بالعبودية -بمقتضى هذه الآية- مركوز في فطرة الإنسان، وهو يتجلى في شعور عميق بوجود ذات عليا كاملة أقوى منه، تنظر إليه بعين الرعاية، ويلتجئ إليها في ساعات الضيق والقلق والاضطراب، وهذا ما يفسر ميل الإنسان -على مر العصور- إلى البحث عن معبود يفضي إليه بذات نفسه، ويقدم له آيات الخضوع لينال رضاه ويستدر عطفه، ويطلب نصره وعونه، ويكشف له أسرار الحياة الغامضة، سواء كان توجهه إلى الله أو سواه: «فالعبودية حقيقة كونية. . . والعبد يراد به المعبَّد الذي عبَّده الله فذلّله ودبّره وصرّفه، والعبودية هي الحقيقة الكونية التي يشترك فيها، وفي شهودها، وفي معرفتها المؤمن

---

(١) قطب. محمد، مفاهيم ينبغي أن تصحح، ص١٧٤.

(٢) الزمخشري ، الكشاف عن حقائق التنزيل، ج٤ ص٢١.

(٣) ابن عاشور: محمد الطاهر، التحرير والتنوير، ج٤ ص٢١.

(٤) المرجع نفسه: ج٤ ص٢١.

(٥) الأعراف: ١٧٢.

والكافر، والبر والفاجر»[1].

وقد أثبتت الدراسات الأنثروبولوجية الحديثة أن جميع شعوب الدنيا، وفي كل الأصقاع، قد مارست العبادة ابتداء من القبائل المغرقة في البدائية إلى الأمم التي بلغت شأواً بعيداً في الحضارة والتقدم.

واختلفت مظاهر العبودية التي كان يظهرها الإنسان للمعبود الذي يدين له، وتفاوتت بين عبادة الكواكب والأجرام السماوية الضخمة كالشمس والقمر، إلى عبادة الحيوانات أو ما يسمى بالطوطمية التي تعتقد بحلول الروح المقدسة في هذه الحيوانات، إلى الأشجار والأصنام، إلى عبادة الجن والملائكة، إلى عبادة البشر، سواء كانوا أنبياء أو أولياء صالحين، أو ملوكاً جبارين وما إليها.

وكل هذه المظاهر التي اتخذتها أشكال التعبد عند الإنسان على مر العصور، وفي مختلف الهيئات، ولدى كل الشعوب، تثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن الإنسان بفطرته مدفوع إلى التماس كائن غيبي غير مادي يرجو منه النفع، ويطلب منه دفع الضر، ويلتجئ إليه في الحالات العصيبة التي تلم به، ويسد به شعور الفراغ والضياع الذي ينتابه في هذا الكون الشاسع، وهذا ما عبر عنه أحد المؤرخين بقوله: «لقد وُجِدَتْ في التاريخ مدن بلا قصور ولا مصانع ولا حصون، ولكن لم توجد أبداً مدن بلا معابد»[2] وقد أكد هذه الحقيقة الإنسانية الفيلسوف الفرنسي برغسون بقوله: «وُجِدَتْ وتوجد جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات، ولكن لم توجد قط جماعات بدون ديانة»[3].

ومفهوم العبودية الذي تحدث عنه القرآن الكريم مفهوم واسع، يلقي بظلاله على جميع شؤون الإنسان كبيرها وصغيرها، ابتداء بالفكرة والخاطرة والسلوك، وانتهاء بالسعي في مناكب الأرض للكدح وطلب الزرق، وهو غير

(١) ابن تيمية. تقي الدين ، العبودية ، ص٤٧ ، ٤٩

(٢) القرضاوي. د. يوسف، الإيمان والحياة ، ص٩٩.

(٣) دراز. د. عبدالله، الدين ، ص٨٧.

محصـور في أداء الشعائر، إذ من غـير المعقول أن يكلف الله عـباده بأن تكون حياتهم كلها عـبادة، ثم يضيق نطاقها في هذا الجانب فقط، فالـبشر لا يقضون حياتهم كلها في إقامة الشعائر، وإنما هناك أنواعٌ أخرى من النشاطات والأعمال التي كلفوا بها، وهي تستغرق معظم أوقات حياتهم[1].

والعـبادة -بهـذا المعنى- تشمل الفـرائض التعـبدية، والأركـان الشعـائرية، وحسن المعاملة، والوفاء بحقوق العباد، والأخلاق والفضائل الإنسانية، وآداب الأكل والشـرب، ووسـائـل كـسب الرزق، وبناء الدولة، وسـيـاسـة الحكم ، وشؤون المعامـلات، وكل ما يتصل من بعيـد أو قريب بحياة الإنسـان الروحية والاجتمـاعية والمادية: ﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحـياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾[2]

وفي هذا الإطار، تصبح حياة الإنسان كلهـا مرتبطة بهذا المفهوم: أن هناك عبداً وربّـاً: عبداً يَعبُد ، وربّـاً يُعبَد. فتتـوجه حياته كلـها بكل حركة ضـمير، وكل حركة جوارح إلى الله سبحانه وتعالى لتؤدي فروض الطاعة والخضوع[3]،

وبذلك تكتـسي العبـودية مفـهومهـا الحقـيقي، وينتـفي الفرق بين الـصلاة والعمل في الحقل، وبين الحج وعمارة الأرض، وبين الزكـاة والسعي لاكتشاف سنن الله وتسـخير الموارد المادية، وبين الصـوم والكدح الدائم وراء رزق أوفـر وحيـاة أفضل، وتصبح كلهـا أعمالاً تعـبدية إذا التزم فـيها الإنسـان الإخلاص والصواب. وفي نطاق هذه العـبودية الشاملـة استخلف الله تعـالى الإنسان في الأرض، وكلفه بمهمة تعميرها، وبذلك كانت العبادة هي لب الخلافة وروحها.

وعلى هذا الأساس، يمكننا تقسـيم العبادة-باعتبـارها الغاية العليا للخلق- إلى قسمين من باب المجاز: عـبادة صغرى تتمثل في القيـام بالفرائض الدينية، والشعائر التعبدية كالصلاة، والصـيام، والزكاة، والحج، والاستغفار، والذكر، ومـا إليـهـا مما يهـذب الغـرائز، ويبـعـد النـاس عن مـتـاهات القلق والضـيـاع

(١) قطب. سيد، في ظلال القرآن، ج٥، ص٣٣٨٧

(٢) الأنعام: ١٦٢ ، ١٦٣.

(٣) قطب. سيد، في ظلال القرآن، ج٥، ص٣٣٨٧.

والاضطراب، ويشعرها بالطمأنينة والسكينة، ويربطها بصلات متينة ودائمة بالله عز وجل.

وعبادة كبرى، تتمثل في الاستخلاف في الأرض بتعميرها، واستغلال خيراتها، وتسخير ما فيها لصالح بني آدم. والعلاقة بين العبادتين وثيقة، بل هما وجهان لعملة واحدة، باعتبار أن النظام العبادي -في شموليته- هو الإطار الأخلاقي للاستخلاف في الأرض والاستعمار فيها.

الاستخلاف بين الإيمان والعمران:

وبناء على ما سبق، فإن المشروع الاستخلافي يقوم على بعدين أساسيين هما: الإيمان والعمران، فالإيمان هو الترقي الروحي والخلقي الذي يثمره تهذيب النفس الإنسانية، وتزكيتها، وتأهيلها لعمل الخير، وتقوى الله في كل ما تأخذ وتدع، ومراعاة حقوق غيرها في المجتمع والمحافظة عليها. وبالجملة فهو يشمل كل ما ينضوي تحت لواء التقوى والفضيلة والعمل الصالح من معان.

أما العمران، فهو الترقي المادي والمدني الذي يتمثل في الجهود التي يقوم بها الإنسان لاستثمار مرافق الكون والانتفاع بها، وتسخيرها في خدمة مطالب حياته، وحاجاته الأساسية. وسنحاول فيما يلي بيان وشرح هذين البعدين:

١ - **الإيمان** : يشكل الإيمان البعد الأول، والركيزة الأساسية للمشروع الاستخلافي، وهو يتحقق باجتهاد الإنسان في الالتزام بأداء الفرائض، والارتقاء إلى أداء النوافل، والمساهمة الفعالة في تغطية فروض الكفاية التي تعين على النهوض بالأمة ودفع مسيرتها نحو الرقي، لأن الشعائر والعبادات من أعظم الوسائل في تربية النفس الإنسانية وتزكيتها، فهي بمثابة المدرسة التي تتناول الإنسان بالتهذيب والإعداد والتربية، و: «الحكمة الجامعة في العبادات كلها هي تزكية النفس وتطهيرها من النقائص الروحية، وتصفيتها من الكدرات، وإعدادها للكمال الإنساني، وتقريبها للملإ الأعلى، وتلطيف كثافتها الحيوانية»[1].

(١) الإبراهيمي، محمد البشير، عيون البصائر، ص٥٧٤.

والعبادات هي التي تغرس وتنمي المعاني الروحية السامية في نفس الإنسان، كمعاني الإيمان بالله، والتقوى لله، والإخلاص له، والثقة به، والتوكل عليه، والرهبة منه، والرغبة إليه، واستشعار رقابته، والإحساس بمعيته، وتغذية الفرد بالشعور بالمسؤولية أمام الله، وترسيخ قيم الاعتزاز بالدين، والمحافظة على شعائره واحترامها وتوقيرها.

فهذه الجهود التي يلزم بها الإنسان نفسه تدفعه إلى تنمية أشواقه الإيمانية، وتتدرج به في سلم الكمال حتى يصل إلى مستوى رفيع من الشفافية الروحية التي تجعله يعبد ربه، وهو يستشعر حضوره الدائم في عقله وضميره ووجدانه، وهي درجة الإحسان التي أشار إليها الحديث الشريف في قوله عليه الصلاة والسلام: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».[1]

وهذا الإحساس السامي هو الذي يرفع توتره الإيماني بصورة مستمرة تدفعه إلى التفاني في تحقيق عبوديته له، وتمده بالطاقة الضرورية للاستعلاء على كل ما من شأنه أن يضعف علاقته الحميمة بربه: «فيحسن كل شيء صغيراً كان أم كبيراً، ويبدع في تنفيذ كل مهمة جزئية كانت أو كبيرة، ويستنفر أقصى طاقات أمانته ومسؤوليته، ويقظة ضميره من أجل أن تجيء جل ممارساته نقية، أصيلة، متسامية...»[2] فالترقي الروحي هو الذي يكون القلوب الحية، والضمائر اليقظة المستعدة للقيام بأعباء الاستخلاف.

وينعكس هذا الاتصال الحي بالله عزوجل -بشكل طبيعي- على سلوك الإنسان وعمله في المجتمع، ويكون من ثمراته الطيبة سعيه لتنمية روح التعاون مع غيره، والاندماج في الجماعة، والتعود على الإيثار والتسامح، ونكران الذات، وحب العمل والتواضع، والصدق، والأمانة، والوفاء والتضحية، والإشفاق على الخلق. ويستتبع ذلك الإعراض عن كل ما يمكن أن يصطدم مع هذه الخصال الحميدة، ويدنس علاقته القوية بربه، ويعوق مسيرة ترقيه الروحي

---

(١) الألباني . محمد ناصر الدين ، مختصر صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب أول الإيمان، ص٧.

(٢) خليل . د.عماد الدين ، آفاق قرآنية، ص١٧.

نحو الأفضل كالكذب والنفاق، والغرور، والحسد، والطمع، والظلم، والبخل، والرياء ما إليها.

وبذلك يحدث الانسجام الرائع بين الإيمان والعمل، أو العقيدة والسلوك، وتنتفي من شخصية المسلم كل مظاهر التناقض والازدواجية، وهو الهدف البعيد الذي كان يرمي إليه القرآن الكريم فيما يبدو من خلال الربط الدائم والمتكرر بين الإيمان والعمل الصالح في كثير من الآيات، كقوله عز وجل: ﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾[1] وقوله تعالى: ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم﴾[2]. ومن خلال التشنيع كذلك على كل من يفصل بين الاعتقاد والسلوك كما في قوله تعالى﴿ياأيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾[3].

وكلما قطع الإنسان أشواطاً في ترقيه الروحي، كلما أثمر ذلك تنمية لإنسانيته، وارتقاء بسلوكه الاجتماعي، وهو ما حدا بالعلماء المهتمين بدراسة السلوك الإنساني، والبحث في بواعثه وأهدافه إلى الاختلاف العميق والشاسع بين الأخلاق التي تفرضها الأحكام المدنية، والأخلاق التي تثمرها التوجيهات الدينية، وتتولد من اجتهاد الإنسان في تحقيق مستوى عال من الترقي الروحي للاقتراب من الله عز وجل، وهذا ما أشار إليه «الكسيس كاريل» في قوله: «فالفكرة المجردة لا تصبح عاملاً فعالاً إلا إذا تضمنت عنصراً دينياً، وهذا هو السبب في أن الأخلاق الدينية أقوى من الأخلاق المدنية إلى حد تستحيل معه المقارنة، ولذلك لا يتحمس الإنسان في الخضوع لقواعد السلوك القائم على المنطق، إلا إذا نظر إلى قوانين الحياة على أنها أوامر منزلة من الذات الإلهية».

ولعل أبرز ما تثمره حركة الترقي الروحي والخلقي التي يمارسها الإنسان

---

(١) العصر: ١، ٢، ٣.

(٢) يونس : ٩

(٣) الصف: ٢، ٣.

وفق قيم الوحي: الارتقاء بالحياة الاجتماعية إلى أعلى مستويات التوافق والانسجام، والقوة، والتماسك، والاندماج ، والعطاء المثمر.

وبسبب الأهمية القصوى التي تكتسبها عملية الترقي الروحي والخلقي في تنفيذ بنود مشروع الاستخلاف على الوجه الذي يرتضيه الله سبحانه وتعالى، أولاه الإسلام عناية خاصة، وعده هدفاً أساسياً وأصيلاً من أهداف العملية الاستخلافية، وبعداً قوياً من أبعادها، ويتجلى ذلك بوضوح في الكم الكبير من التوجيهات القرآنية والنبوية التي تدعو المسلم، وتلح عليه لتقوية صلته بالله عن طريق العبادة، والاجتهاد في الترقي في مدارج الكمال الروحي والخلقي، حتى يصل إلى درجة الإحسان: ﴿إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»[1].

٢ - **العمران**: ونقصد به الجهود والنشاطات العقلية والمادية التي بذلها الإنسان في تفاعله مع مظاهر الطبيعة المختلفة في محاولة دائبة لتسخيرها، واكتشاف السنن والقوانين التي تحكمها للاستفادة منها، والانتفاع بها، وتمتد هذه الجهود لتشمل الكون كله: الأرض وما تنبته من خيرات، وما يعيش فوقها من أنعام ودواب، وما يكمن في باطنها من ثروات وكنوز، والبحار والمحيطات وما تضمه من مخلوقات، وموارد غنية، فكل ما يحويه هذا الكون ملك للإنسان بأمر الله، مسخر له، خاضع لعقله ويديه، ويدخل فيها كذلك كل الإنجازات المادية من زراعة وصناعة، وتجارة، وعمارة، والقوانين الاجتماعية، والتنظيمات الإدارية، والمعاملات الاقتصادية والعلاقات السياسية، وكل ما يتعلق بحياة الإنسان المادية والاجتماعية.

و قد وردت مادة«عمر» في القرآن الكريم بعدة صيغ «أربعاً وعشرين مرة» فجاء الفعل«عمر» مرتين في سورتين ، و«عمّر» خمس مرات في أربع سور، و«استعمر» و«معمر» و«عمارة» مرة واحدة في ثلاث سور مختلفة، وغيرها من الصيغ.

---

(١) مالك بن أنس، الموطأ ، ص٦٥١، الحديث رقم١٦٣٤، وابن حنبل، المسند، ج٢، ص٣٢١، واللفظ له.

ففي قوله تعالى: ﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾[1]، إشارة إلى البعد الثاني الذي تقوم عليه عملية الاستخلاف في الأرض. قال ابن كثير: «استعمركم فيها: أي جعلكم عمارا تعمرونها وتستغلونها»[2] وقال الراغب الاصفهاني: «أعمرته الأرض واستعمرته: إذا فوضت إليه العمارة»[3] وقال ابن عاشور «معنى استعمركم: أنه أقدركم على عمارتها، وأعدكم لاستثمار ما فيها، وهيأكم للاستفادة بما عليها وفيها وحولها من منافع وخيرات ... والاستعمار: الإعمار، أي جعلكم عامرينها، ومعنى الإعمار أنهم جعلوا الأرض عامرة بالبناء والغرس والزرع»[4].

وقد استعمل ابن خلدون هذا المصطلح القرآني في تاريخه مراراً وتكراراً، ومنها قوله في المقدمة«الحمد لله الذي ... أنشأنا من الأرض نسما، واستعمرنا فيها أجيالاً وأمماً، ويسر لنا منها أرزاقاً وقسماً»[5]. ومنها كذلك افتتاح المقدمة الأولى من الكتاب الثاني من تاريخه في أخبار العرب بقوله: «اعلم أن الله سبحانه وتعالى اعتمر هذا العالم بخلقه، وكرم بني آدم باستخلافهم في أرضه، وبثهم في نواحيها لتمام حكمته...»[6]

واستناداً إلى هذا المصطلح بنى أسس علمه الذي يبحث في أحوال الدول والممالك، وعوامل ازدهارها، وأسباب سقوطها، وتاريخ البشر فوق الأرض، وأساليبهم في الصراع على خيراتها، والتنافس على حيازة السيادة فيها، وإقامة الحضارات، وسماه علم العمران، وهو لا يعني علما معيناً، بل يضم مجموعة من العلوم كعلم التاريخ، وعلم الاجتماع ، وعلم الاناسة وعلم النفس والتربية ، فقال: «هذا الاجتماع ضروري للنوع الإنساني وإلا لم يكمل وجودهم وما أراده الله من اعتمار العالم بهم، واستخلافه إياهم، وهذا هو معنى العمران

---

(١) سورة البقرة: ٦١

(٢) الصابوني . محمد علي، مختصر تفسير ابن كثير، ج٢، ص٢٢٤.

(٣) الأصفهاني . الراغب ، معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص٣٥٩.

(٤) ابن عاشور . محمد الطاهر، التحرير والتنوير،ج١٢ ص١٠٨.

(٥) ابن خلدون. عبدالرحمن ، المقدمة، ص٣ .

(٦) ابن خلدون. عبدالرحمن ، العبر، ج٣، ص٣.

الذي جعلناه موضوعاً لهذا العلم»[1] وبذلك استطاع ابن خلدون أن يؤصل هذا المصطلح، ويربطه ربطاً وثيقاً بالنظرية القرآنية في الاستخلاف.

وكما جعل الله الإحساس بالعبودية جزءاً أصيلاً من الكيان البشري، كذلك كان العمران جزءاً أساسياً من تكوين الإنسان الفطري، فقد ربط الله بينه وبين حاجات الإنسان الأساسية ربطاً عميقاً يجعله مدفوعاً إلى الإعمار دفعاً، لأنه ليس بمقدوره أن يتوقف عن السعي في مناكب الأرض لارتباط هذا السعي بوجوده، كما هو الحال في حاجته الدائمة إلى الغذاء والكساء والمأوى، وغريزة حب البقاء التي تدفعه إلى التناسل، والنزعة الجماعية التي تحمله على العيش مع غيره وما إليها﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله﴾[2]

وهذا ما يفسر حركة الإنسان فوق الأرض، وتفاعله مع مختلف المظاهر الطبيعية منذ فجر التاريخ، وسعيه الدائم لتسخيرها بما وهبه الله من طاقات عقلية، وقدرات جسمية، وقد استطاع -من خلال هذه الحركة الدائبة- أن يُغيِّر، ويبدل، ويصنع، ويتفنن في استخدام موارد الطبيعة إلى أن أحالها مصدراً غنياً، يزوده بما يحتاج إليه من أصناف المآكل والمشارب والملابس، وأنواع المساكن، ووسائل النقل، وأساليب الراحة والرفاهية.

وعلى مر التاريخ، ظهرت آثار سعيه في الأرض واضحة«ونحن نشاهد عجائب صنعه في المدن والنبات، وفي البر والبحر والهواء ، فهو يتفنن ويبتدع، ويكتشف، ويخترع ويجد ويعمل، حتى غير شكل الأرض فجعل الحزن سهلاً، والماحل خصباً، والخراب عمراناً، والبراري بحاراً أو خلجاناً، وولد بالتلقيح أزواجاً من النبات لم تكن . . . وقد تصرف في أبناء جنسه من أنواع الحيوان كما يشاء بضروب التربية والتغذية والتوليد، وهو ينتفع بكل نوع منها، ويسخره لخدمته، كما سخر القوى الطبيعية وسائر المخلوقات»[3]

---

(١) ابن خلدون. عبدالرحمن ، المقدمة، ص٤٣

(٢) سورة الروم: ٣٠

(٣) رضا. محمد رشيد ، تفسير المنار ، ج١ ص٢٦٠.

ويتحقق الجانب العمراني- في المنظور القرآني- على ثلاث مستويات وفقاً للمقاصد العامة للشريعة وهي: الضرورية التي يتحتم على الإنسان توفيرها لأن حياته لا تستقيم بدونها، وإذا فقدت اختل نظام الحياة، وعمت الفوضي والمفاسد، وهي ترجع إلى حفظ خمسة أشياء: الدين،والنفس، والعقل، والنسل، والمال. والحاجية: وهي لا تتوقف عليها صيانة الأركان الخمسة السابق ذكرها، وإنما يحتاج إليها الناس للتوسعة ودفع الضيق والحرج، والقدرة على تحمل مشاق التكليف، وأعباء الحياة بما تيسر لهم من طرق التعامل والتبادل وسبل العيش. والتحسينية: وهي التي يسعى الإنسان من خلالها إلى دفع مستوى الحياة إلى مزيد من اليسر والسهولة، بتيسير سبل التمتع بالطيِّبات، والانتفاع بالخيرات، وتوفير حد أعلى من الكماليات[1].

وانطلاقاً مما سبق، فإن عملية الاستخلاف -في الخطاب القرآني- لايمكن أن تتم على وجهها الصحيح إلا إذا تكامل فيها الإيمان والعمران، وتوازى فيها السعي نحو الترقي الروحي، مع جهود الترقي المادي والمدني، فإذا اتجه اهتمام الإنسان نحو جانب دون الآخر اضطربت حركته واختلت، وفقد توازنه.

ومن النصوص القرآنية الكثيرة التي تتجلى فيها هذه الدعوة إلى التوازن بين القيم الروحية والمادية قوله تعالى﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولاتبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين﴾[2] وقوله عز وجل﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب﴾[3]

ففي هاتين الآيتين نلمح هذا الارتباط، والتلازم، والتداخل بين عمليتي الترقي الروحي والترقي المادي، ومنه نستوحي أن كل انفصال يحدث بينهما سيؤدي -لامحالة- إلى إرباك حركة الإنسان، وانحراف في مساره ويفضي -بالتالي- إلى الفساد في الأرض.

---

(١) راجع : الشاطبي، الموافقات، ج٢-وابن عاشور، محمد الطاهر، مقاصد الشريعة.

(٢) القصص: ٧٧.

(٣) هود: ٦١.

والآيتان صريحتان في التعبير عن ذلك، فقوله تعالى: ﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة﴾ وقوله: ﴿ فاستغفروه ثم توبوا إليه﴾ دعوة إلى الاهتمام بالأشواق الروحية، والقيم الإيمانية وقوله عز وجل: ﴿ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾، وقوله: (هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾ دعوة موازية إلى عمارة الأرض في جانبها المادي، والانتفاع بثرواتها، والاستمتاع بخيراتها.

هكذا ، فإن«منطق التوازن الحركي الذي يرفض الانحراف أو السكون هو القاعدة التي نلمسها في القرآن الكريم بوضوح من خلال عدد كبير من آياته البينات، والتي تكفل نموا سليماً لأية حضارة تستطيع أن تحافظ على نقطة التوازن بين تجربتي الروح والمادة، ولا تنحرف باتجاه إحداهما مهملة الأخرى»[1].

وقد استطاعت الحضارة الإسلامية -في عصورها الزاهرة- أن تتجاوز المادية اليهودية الجافة، والرهبانية المسيحية المفرطة في الزهد والتقشف، وأن تتفاعل بشكل متميز مع قيم الوحي الصحيحة، وأن تجسد هذا التوازن بين القيم المادية والقيم الروحية في أروع صوره، وأن تحقق -بذلك- إنسانية الإنسان الذي كرمه الله، وأسجد له الملائكة، وحمّله الأمانة وجعله مستخلفاً في الأرض، وأن تجعل إنجازاتها كلها في خدمته. وهذه هي الحضارة الإنسانية المنشودة التي يدعونا القرآن الكريم إلى بنائها.

الأرض ميدان للاستخلاف:

لقد حددت النصوص القرآنية الميدان الذي هيأه الله سبحانه وتعالى للإنسان ليمارس فيه عملية الاستخلاف، وعبرت عنه بمصطلح «الأرض» الذي ورد في مواضع كثيرة جداً بلغت ٤٦١ مرة، ودلت على معان عديدة كلها مرتبطة بالوجود الإنساني، وتشترك جميعاً في كون الأرض هي المكان المناسب الذي أعده الله لاستقرار الإنسان، وجعله ميداناً فسيحاً للاستخلاف، كما

---

(١) خليل.د.عماد الدين ، حول إعادة تشكيل العقل المسلم، ص١٢٤.

يتضح ذلك في قوله تعالى: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾[1] ، وقوله عزوجل: ﴿ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلاً ما تشكرون﴾ [2]، وقوله سبحانه: ﴿هو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم﴾[3]، وقوله عز من قائل: ﴿هو أنشاكم من الأرض واستعمركم فيها﴾[4]، وقوله أيضاً: ﴿ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾[5].

والأرض هي الكوكب الذي نعيش عليه، وهو واحد من الأجرام السماوية العديدة التي تسبح في الفضاء، ونقصد بها كل ما يحتويه هذا الكوكب من بحار ويابسة، وهواء وماء، وما يدب فوقها من أحياء، وما يزخر به جوفها من ثروات وكنوز؛ وعليه فإن الأرض كناية عن الوجود كله بما فيه من مخلوقات مسخرة للإنسان حية وجامدة، سواء أكانت معروفة أم مجهولة.

ولعل تكرار كلمة«الأرض» مراراً في الآيات القرآنية للدلالة على الميدان الذي سيمارس فيه الإنسان حركته الاستخلافية، يعود إلى كونها المصدر الذي خلق منه، حيث يجمع بينهما وحدة العنصر، ووحدة المأتى والمصير، فهما يتحدان في مصدر الوجود الذي عبر عنه قوله تعالى: ﴿والله أنبتكم من الأرض نباتاً﴾ [6] وقوله عز وجل: ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخركم تارة أخرى﴾[7] والذي يوحي بالترابط التكويني بين الإنسان والأرض، ويؤكد أنه خلق من عناصرها.

ثم إن الأرض هي المكان الوحيد-في هذا الفضاء- الذي تتوفر فيه الظروف المناسبة التي تتيح للإنسان أن يعيش حياة عادية ومستقرة، ابتداء من

(١) البقرة: ٣٠.
(٢) الأعراف: ١٠.
(٣) الأنعام: ١٦٥.
(٤) هود: ٦١.
(٥) البقرة: ٣٦.
(٦) نوح: ١٧.
(٧) سورة طه: ٥٥

الهواء الذي يستنشقه، والغذاء الذي يتناوله، والماء الذي يشربه، والجاذبية التي تشده إلى السطح، ودرجة الحرارة التي تستقبلها الأرض، وكل ما يتصل اتصالاً مباشراً بطبيعة تكوينه العضوي، وهو ما لا يوجد مثله في مكان آخر خارج الأرض.

وفي هذا الإطار، يستعمل المفكر الإسلامي «مالك بن نبي» مصطلح «التراب» ليعبر به عن ميدان الاستخلاف، وهو يقصد به القيمة الاجتماعية التي تكتسبها الأرض وخيراتها الظاهرة والباطنة عندما يستغلها الإنسان، وما ينتج عن ذلك من حركة بنّاءة تسهم في تطوير المجتمع، ودفعه إلى الأمام في زمن معين، وهو بذلك يعد التراب مقوماً أساسياً من مقومات بناء الحضارة التي تشمل -بالإضافة إلى التراب- الإنسان والوقت[1].

ونحن نختلف مع من ينتقدون مالك بن نبي في اختيار هذا المصطلح، ويعيبون عليه حصر نطاق التسخير الإلهي في الجانب الجغرافي المرتبط بالتربة وإصلاحها وإعدادها للزراعة[2]، لأننا نرى أن التراب عنده كناية عن الأرض جميعاً، وهذا من قبيل إطلاق الجزء على الكل، وهو -في نظرنا- يكاد يكون مرادفاً للفظ الأرض الذي استعمله القرآن الكريم كثيراً، والذي يستوعب الأرض والسماء والجبال والبحار بما فيها وما عليها من مخلوقات، وكل الحقائق العينية والمجهولة، مما يؤكد أن الإنسان خليفة على كل ما ذرأ الله في هذا الكون الفسيح من أحياء، وجمادات، وخيرات ، وثروات ظاهرة وباطنة، برية وبحرية وجوية وغيرها.

وحتى يستطيع الإنسان أن يحقق مهمته الاستخلافية في الأرض، شاءت إرادة الله سبحانه وتعالى أن تكون هذه الأرض مهيأة لاستقباله، صالحة لاستقراره، معدة لأن تتفاعل موجوداتها كلها مع حركته فوقها حيث: «حدد الله سبحانه أبعادها وقوانينها وأحجامها بما يتلاءم والمهمة الأساسية لخلافة الإنسان في العالم، وقدرته على التعامل العمراني مع الطبيعة تعاملاً إيجابياً

(١) بن نبي. مالك شروط النهضة، ص١٣١، وما بعدها.

(٢) الخطيب. سليمان، فلسفة الحضارة عند مالك بني نبي، ص٨٣.

فاعـلاً»[1] ، وتتجلى مظاهر هذا الإعداد الرباني للجو المناسب للاستخلاف في كل ما يحيط بالإنسان من جمادات وحيوانات، وأجرام سماوية وغيرها.

فالشمـس والقمر مسخـران بأمر الله تعالى لإرسال الضـوء والدفء بمقدار محـدد، وكمـية مناسبـة لا تزيد ولا تنقص ولا تختـل، وإلا تعرضت الأرض للفناء، فلو أعطت الشمس نصف كمية الإشعاعات التي تعطيها حالياً لتجمدت الأرض بما عليـهـا من كـائنات حـية، ولو أن الكـمـيـة الحـاليـة زادت بالنصف لاحترقت الأرض، وأمست الموجودات رمادا.

ومثل ذلك النسبة المضبوطة لكمـية الأوكسوجين في الهواء، والتي تقدر بـ ٢١٪، فلو أنها ارتفعت إلى ٥٠٪ فـإن جميع المواد القابلة للاحـتراق في العالم تصـبح عرضـة للاشـتعـال مع وجـود أقل شـرارة، ثم إن هناك توازناً بين هذه الكميـة من الأوكسجين ، ونسبـة ثاني أكسيـد الكربون في الهواء ، فلو زادت النسبة في مـادة على حساب الأخرى لذوى النبات ومـات الحيوان[2]، واختفى الإنسان من الأرض.

وتعـاقب الليل والنهار وبالمدة المطـلوبة حسب فـصول السنة، يتـيح لأنواع الثمار والنباتات أن تنمـو بشكل طبيعي حتى تأخذ حاجتهـا الكافية من الشمس دون إفراط أو تفريط.

ودوران الأرض حول نفسهـا وحول الشمس بسرعة دقيـقة، له أثره القوي في وجـود الحياة واسـتقـرارها، فهي تدور حـول نفسـها بسـرعة ألف مـيل في الساعة، وتدور حول الشمس بسرعة خـمسة وستين ألف ميل في الساعة، فلو أن الأرض زادت قليـلاً من سـرعـتـهـا المضـبـوطة لتناثرت المـنازل، وتفككت الموجودات، ولو أن هذه السـرعة نقصت قليـلاً لهلك من على الأرض من حر وبرد[3].

---

(١) خليل. د.عماد الدين، حول إعادة تشكيل العقل المسلم، ص٩٦, ٩٧.

(٢) طبـارة. عفـيف عبـدالفتـاح، روح الدين الإسـلامي، ص٥٧ وانظر: كتـاب قصـة الإيمان للشيخ نديم الجسر رحمه الله.

(٣) زكي. د.أحمد، مع الله في السماء، ص٧٨.

والبحار والمحيطات على امتدادها الشاسع، وأمواجها العاتية، وجوفها المظلم العميق الزاخر بأنواع الكائنات الحية، ومصادر الرزق الوفيرة ممهدة للإنسان ليركب سطحها في تنقلاته، ويغوص في أعماقها ليستخرج كنوزها ويقتات منها.

والتربة جاهزة بطبيعة خلقتها لاحتضان البذور بعد عملية الزرع، وإخراج النبات بمختلف أشكاله وأنواعه ليكون غذاء للإنسان. والحيوانات مهيأة -على الرغم من ضخامة جنسها الذي يفوق حجم الإنسان وقوة عضلاتها التي تعادل أضعاف قوته -لأن تنقاد إليه ليدجنّها ويستعملها في سفره، وينتفع بلحومها وأصوافها وأوبارها. قال تعالى: ﴿أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون، وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون﴾[1]، قال القرطبي: «أي سخرناها لهم حتى يقود الصبي الجمل العظيم ويصرّفه كيف يشاء لا يخرج عن طاعته»[2].

وهكذا يبدو لنا أن كل ما في هذا الكون يتحرك في نظام دقيق، وترابط عجيب، ونسق مضبوط لا يخرج عنه ولا يتجاوزه مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾[3] وهذا من أجل تهيئة وتوفير الظروف المناسبة التي يتحرك فيها الإنسان فوق الأرض لتنفيذ مشروع الاستخلاف الإلهي.

قد تنبه العلماء إلى التناسب الموجود بين قدرات الإنسان، وسائر الموجودات في هذا العالم، وخلصوا إلى تقرير أن ذلك أمر مقصود من الله سبحانه وتعالى ليحقق إرادته في استخلاف الإنسان في الأرض، ومن ذلك ما ورد في كتاب« تفصيل النشأتين» للراغب الأصفهاني، الذي أكد أن الإنسان هو المقصود من العالم، وأن كل ما عداه موجود لأجله فقال: «المقصود من العالم وإيجاده شيئاً بعد شيء هو أن يوجد الإنسان، فالغرض من الأركان أن يحصل منها النبات، ومن النبات أن تحصل الحيوانات، ومن الحيوانات أن تحصل

---

(١) يس: ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣.

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١٥، ص٥٥.

(٣) القمر: ٤٩.

الأجسام البشرية، ومن الأجسام البشرية أن يحصل منها الأرواح الناطقة، ومن الأرواح الناطقة أن يحصل منها خلافة الله تعالى في الأرض . . . وجعل تعالى الإنسان سلالة العالم وزبدته، وهو المخصوص بالكرامة كما قال تعالى: ﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾، وجعل ما سواه كالمعونة له»[1].

وقد تناول ابن رشد هذه الفكرة نفسها، وأكد أن هذا التوافق العجيب الموجود بين الإنسان والأرض من آثار القدرة الإلهية الحكيمة فقال: «إن جميع الموجودات التي ههنا موافقة لوجود الإنسان، وهذه الموافقة هي ضرورة من قبل فاعل قاصد لذلك مريد، إذ ليس يمكن أن تكون هذه الموافقة بالاتفاق. فأما كونها موافقة لوجود الإنسان فيحصل اليقين بذلك باعتبار موافقة الليل والنهار ، والشمس والقمر لوجود الإنسان، وكذلك موافقة الأزمنة الأربعة له. والمكان الذي هو فيه أيضاً وهو الأرض. وكذلك تظهر أيضاً موافقة كثير من الحيوان له، والنبات والجماد، وجزئيات كثيرة مثل الأمطار، والأنهار، والبحار، وبالجملة الأرض والماء والنار والهواء، وكذلك أيضاً تظهر العناية في أعضاء الإنسان وأعضاء الحيوان، أعني كونها موافقة لحياته ووجوده»[2]

والله سبحانه وتعالى حينما أعد الأرض لتكون مهيأة لحياة الإنسان لم يشأ أن يجعلها ممهدة تمهيداً كاملاً فيميل البشر إلى الكسل، ويركنون إلى السلبية، كما لم يشأ أيضاً أن يجعلها لغزاً محيراً، ومجالاً مستغلقاً عن النظر، وغامضاً يأبى كل محاولات الفهم والكشف والاستفادة[3]، بل قدر أن تكون في متناول الإنسان، شرط أن يوظف طاقاته العقلية والجسمية، ويستنفرها، ليبدأ رحلة المقاومة والتحدي، والدأب والمعاناة، والفشل والنجاح والإبداع والإخفاق، حتى تكتسي حياته فوق الأرض طابع الاجتهاد المفضي إلى تحقيق الاستخلاف.

وقد عبر القرآن الكريم عن هذه التهيئة بعبارة«التذليل» التي توحي بمعاني

---

(١) الأصفهاني. الراغب، تفصيل النشأتين، وتحصيل السعادتين، ص ١٠١٠

(٢) ابن رشد، مناهج الأدلة، ص ١٥١، ١٥٢.

(٣) خليل . د.عماد الدين ، حول إعادة تشكيل العقل المسلم، ص٩٧.

التمهيد والتسهيل، والتيسير، والإعداد ، والتجهيز الذي يمكّن الإنسان من مباشرة عملية الاستخلاف. قال تعالى: ﴿ هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾[1].

قال ابن كثير: «ذكر نعمته على خلقه في تسخيره لهم الأرض وتذليله إياها لهم بأن جعلها قارة ساكنة لا تميد ولا تضطرب بما جعل فيها من جبال، وأنبع فيها من العيون، وسلك فيها من السبل، وهيأ فيها من المنافع ومواضع الزروع والثمار»[2].

وقال سيد قطب: «والأرض الذلول كانت تعنى في أذهان المخاطبين القدامى هذه الأرض المذللة للسير فيها بالقدم، وعلى الدابة، وبالفلك التي تمخر البحار، والمذللة للزرع والجني والحصاد، والمذلله للحياة فيها بما تحويه من هواء وماء وتربة . . وهي مدلولات مجملة يفصلها العلم فيما اهتدى إليه حتى اليوم تفصيلاً يمد في مساحة النص القرآني في الإدراك. فمما يقوله العلم في مدلول الأرض "الذلول" إن هذا الوصف «ذلولاً» الذي يطلق عادة على الدابة مقصود في إطلاقه على الأرض. فالأرض هذه التي نراها ثابتة، مستقرة، ساكنة، هي دابة متحركة، بل رامحة، راكضة، مهطعة! وهي في الوقت ذاته ذلول لا تلقي براكبها عن ظهرها، ولا تتعثر خطاها، ولا تخضه، وتهزه، وترهقه كالدابة غير الذلول»[3]

ثم يوضح طبيعة هذه الحركة التي تتجلى في دوران الأرض حول نفسها بسرعة مذهلة لا يتصورها العقل الإنساني، ودورانها حول الشمس بأضعاف أضعاف سرعة دوراتها حول نفسها «ومع هذا الركض كله يبقى الإنسان على ظهرها آمناً مستريحاً، مطمئناً، معافى، لا تتمزق أوصاله، ولا تتناثر أشلاؤه بل لا يرتج مخه، ولا يدوخ، ولا يقع مرة عن ظهر هذه الدابة الذلول»[4].

---

(١) الملك : ١٥.

(٢) ابن كثير. أبو الفداء إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص٣٩٣.

(٣) قطب. سيد، في ظلال القرآن، ج٦، ص٣٦٣٧

(٤) المرجع نفسه. ج٦. ص٣٦٣٧

أما محمد سعيد رمضان البوطي فيقول معلقاً على هذه الآية: «ألا ترى إلى كلمة «ذلولاً» في قوله عز وجل: ﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً﴾ وهي صيغة مبالغة بمعنى مذللة، كيف صورت الأرض وكأنها مائدة وضعت بين يدي الإنسان، بكل ما على ظهرها من خير لِيُعمِلَ فيها قدرته العضلية، ومواهبه الفكرية، وليستخرج منها كل ما يطمح إليه من أسباب السعادة والنفع»[1].

وبعد أن أحاط الله سبحانه وتعالى الإنسان بهذه الموجودات المناسبة لخلقته، المتجاوبة مع طبيعة تكوينه ومهمته الاستخلافية، المتفاعلة مع حركة عقله وجسمه، دعاه إلى الانطلاق في أرجاء هذا الكون ليبدأ رحلته المقدرة، وألهمه أن جميع ما يحيط به مسخر له في الأصل، قابل للخضوع له، مخلوق ليخدمه وينفعه ويطيعه، شريطة أن يلتزم المنهج الإلهي الذي يضيء له الطريق، ويرسم له أبعاد وظيفته الحضارية.

الدين منهج للاستخلاف:

عندما خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان وكرمه، وفضله على سائر المخلوقات، وكلفه بوظيفة الاستخلاف في الأرض، لم يتركه فوقها وحيداً يحتكم في حياته إلى عقله القاصر، وغرائزه الجامحة، بل دعمه بالوحي منذ خلق آدم، والذي تمثل في تلك الكلمات المباركات التي تلقاها من ربه بعد هبوطه هو وزوجه إلى الأرض، فكان أول رسول إلى بنيه، يبلغهم كلمة الله ووحي السماء.

ثم تتالى بعده الأنبياء والرسل يحملون المنهج الإلهى والكتب السماوية، فكان الله سبحانه وتعالى يبعث رسله في كل مرة تنحرف فيها البشرية عن جادة الصواب، وتطغى، ويهدد فسادها بذهاب ريحها-ليعيدوها إلى الصراط المستقيم ، ويحيوا في النفوس ما ضمر من معاني التوحيد الخالص، ومبادىء الحق والخير والفضيلة.

والتاريخ يثبت أنه لم تخل أمة أو زمن من رسول أو نبي يبشر بالوحي،

(١) البوطي. محمد سعيد رمضان، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن ، ص٩٨.

وينهض بمسؤولية هداية الناس إلى أقوم السبل، وتصحيح المفاهيم التي انحرفت في نفوسهم، وبذلك رافق الوحي مسيرة البشرية من آدم عليه السلام إلى محمد صلى الله عليه وسلم، ومضمون الوحي هو ما يمكن أن نعبر عنه بالدين﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾[1].

فالدّين -إذن- هو تلك التعاليم والتوجيهات التي أوحى الله بها إلى أنبيائه ورسله لبناء تصور صحيح عن الله والإنسان والكون والحياة، ولتنظيم حياة الناس في الأرض، بحيث تتناسق مع سنن الأنفس والآفاق، وتتحرك في الاتجاه الصحيح الذي يضمن للإنسان ظروفاً مناسبة، يمارس فيها عملية الاستخلاف كي لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

وقد عمل الدين -منذ القديم- على ترقية الإنسان في جميع جوانبه الروحية، والخلقية، والاجتماعية، والفكرية، فنقله من الفوضى إلى النظام، ومن الصراع إلى التعاون، ومن الخرافة والظن إلى الحقيقة، والبرهان، وهذب سلوكه، وصحح علاقاته مع الناس، وكان دائماً هو العامل القوي الذي يربط بين بني الإنسان بروابط قوية من المحبة والتراحم والتضامن تعلو على روابط الجنس واللغة والجوار.

كما كان القوة الوحيدة التي استطاعت -على مر العصور- أن تربي في أعماق الإنسان الوازع الديني، والرقيب الأخلاقي الذي ينبع من ذاته فيدفعه إلى فعل الخير، ويردعه عن الشر، ووفر له أيضاً الأمن النفسي والرحمة والسكينة، عندما ربطه بخالقه الذي يلتجيء إليه وقت الضيق والشدة، فيشعر في رحابه بالطمأنينة، والأمل المتجدد في المستقبل.

والدين الذي أوحاه الله إلى الناس واحد في أصوله العامة، فهو يدعو إلى توحيد الله وإفراده بالعبودية، والالتزام بما أمر به ونهى عنه، وإباحة الطيبات، وتحريم الخبائث، وليس هناك من اختلاف في الدين الذي جاءت به الرسل من عند الله إلا في التشريعات الخاصة بأمة دون أخرى مراعاة لوضعها الاجتماعي

---

(١) النحل: ٣٦

ودرجة استعدادها العقلي، قال تعالى: ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾[1] وقال: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾[2].

أما الاختلافات العميقة، والاتجاهات المتباينة ، والصراع الذي حدث بين أتباع مختلف الأديان، فما هو إلا أثر من آثار عقل الإنسان وأهوائه، والذي تصرف في قيم الوحي، فزاد عليها، ونقص منها، وحرف بعضها لأسباب كثيرة منها ما يتعلق بالمصالح الشخصية كالوصول إلى الرئاسة والزعامة، أو الأطماع المادية لنيل حظوظ الدنيا باستغلال الدين وما إلى ذلك مما يختلج في نفوس البشر من أهواء تطغى عليهم في غياب الوازع الديني، فيتناولوا دين الله بالتغيير، والتحريف والتبديل: ﴿وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم﴾[3].

وعليه، فإن كل ما ينافي الأصول العامة للدين، أو يصطدم معها أو يناقضها ليس من الدين في شيء، وإن ادعى بعضهم غير ذلك، لأن الدين منزل من عند الله الكامل كمالاً مطلقاً، فلا يمكن أن يكون إلا صورة من صور هذا الكمال الذي لا يشوبه نقص، ولا يعتريه باطل، وبالتالي فإن الخير الذي يأمر به الدين خير محض غير مشوب بغرض، لأن صاحبه رب الجميع، والغني عن الجميع، وهو أعلم بمن خلق، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، وهو العليم الحكيم المنزه عن كل نقص.

ومن ثم كان الدين قيماً إلهية ترتفع فوق مستوى الغايات الشخصية، والبيئات المتباينة والأجيال المتعاقبة، والشعوب المختلفة لترسم خطوطاً عامة للمصلحة الإنسانية تراعى فيها الطبيعة البشرية بكل وجوهها من روح ومادة، وعقل وأهواء وغرائز، متجاوزة -بذلك- الزمن والانتماء والبيئة، وهذا هو

---

(١) الشورى: ١٣

(٢) الأنبياء: ٢٥.

(٣) آل عمران: ١٨.

جوهر الاختلاف بين الدين ذي المصدر الإلهي المعصوم، وبين نظريات واجتهادات البشر التي تتحكم فيها حدود البيئة وشروط الوراثة، وأنواع الثقافة، وهي عوامل ينفعل بها الإنسان، وتنعكس على تفكيره وسلوكه وتوجهه في تحديد أهدافه في الحياة، ويخضع لها في تحديد قيمه، وقياس مبادئه[1].

وقد ختم الله سائر الأديان بالدين الإسلامي، فأنزل على محمد صلى الله عليه وسلم شريعة عامة، نسخت كل ما سبقها من شرائع، وكانت خلاصة الأديان كلها في وقت بلغت فيه البشرية آخر مراحل تطورها الفكري والاجتماعي. وقد اشتملت على أسمى ما عرفته الإنسانية من قيم ومباديء: كالتوحيد ، والحرية، والشورى، والعدل الاجتماعي، وكرامة الإنسان، وتمجيد العقل، والدعوة إلى العلم، والحث على العمل، والمساواة، والتسامح ، والرحمة، والإخاء الإنساني، ونبذ العنصرية، وثبات القيم الأخلاقية وغيرها.

وجعل هذه الشريعة صالحة لكل زمان ومكان لما حملت في ذاتها من خصائص العموم حيث جعلها الله رسالة عامة للبشرية جمعاء، ولم يجعلها وقفاً على جنس أو شعب أو قوم﴿قل ياأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾[2]، والشمول حيث غطت جميع جوانب الحياة الإنسانية، فوجهتها ونظمتها بما في ذلك حياته الروحية، والاجتماعية ، والثقافية، والاقتصادية، والسياسية ، وغيرها﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾[3]، والخلود ، فقد احتوت كل المقومات التي تضمن لها البقاء وتجعلها متجاوبة مع كل أشكال التغيير الذي يطرأ على الحياة الإنسانية إلى أن تقوم الساعة، وذلك في إطار من الثوابت التي تترك متسعاً للاجتهاد والاستنباط.

من هنا، كان الإسلام هو المنهج الأمثل والأكمل الذي ارتضاه الله سبحانه وتعالى للإنسان لتنظيم حياته الطبيعية على أساس أن القيم الإسلامية إن هي

---

(١) البهي .د.محمد، الدين والحضارة الإنسانية، ص٨٠

(٢) الأعراف: ١٥٩.

(٣) الأنعام: ٣٩.

إلا قطاع من الناموس الإلهي العام الذي يحكم فطرة الإنسان، وفطرة الوجود العام، وينسقها كلها جملة واحدة[1].

وقد نبه القرآن الكريم بشكل حاسم إلى ضرورة الالتزام بهذا المنهج الإلهي كما يتبين ذلك من نصوص كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾ [2] ، وقوله عز وجل: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ [3] ، وقوله: ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾[4] وقوله أيضاً: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾[5] وقوله﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾[6]، وقوله: ﴿ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾[7].

وكلما كانت عملية الاستخلاف وفية لهذا المنهج، ملتزمة بتعاليمه منضبطة بمبادئه، كلما أثمر ذلك نتائج مهمة على المستويين الاجتماعي والطبيعي، فالاسترشاد بقيم الوحي للقيام بأعباء الاستخلاف يمكن الإنسان من إحداث التوازن المطلوب بين حاجاته المادية، وأشواقه الروحية والمحيط الطبيعي من حوله، ويقود سفينة الحياة إلى بر الأمان الذي تحس عنده الإنسانية بسكينة النفس، واطمئنان القلب ، وطهارة المشاعر ، وسيادة العدالة الاجتماعية والمساواة الحقيقية بين الناس.

وبذلك يتحقق الاستخلاف في الأرض في أتم صورة-كما رسمه الله للإنسان- وهو ما أشار إليه القرآن الكريم، عندما بين للمسلمين أن الإيمان

(١) قطب. سيد، معالم في الطريق، ص٩٩.
(٢) الأنعام: ١٥٣.
(٣) آل عمران: ١٢
(٤) المائدة: ٣.
(٥) آل عمران: ٨٥
(٦) الأنعام: ١٢٥.
(٧) آل عمران: ١٠٢.

والعمل الصالح طريق للتمكين والاستخلاف في الأرض: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾[1] وقال سبحانه وتعالى: ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾[2]

وانطلاقاً من هذا التقرير الإلهي الذي يجعل وراثة الأرض من نصيب الذين آمنوا وعلموا الصالحات، يؤكد الله سبحانه وتعالى أن التزام الإنسان بالقيم الدينية الصحيحة هو المنهج القويم للاستخلاف الذي يجمع بين سيادة الإنسان المطلقة على الكون بتحقيق التقدم المادي والعمراني، وبين العبودية الكاملة لله عز وجل.

أما إذا تمرد الإنسان على منهج الله سبحانه وتعالى، وكفر بقيم الوحي، واكتفى بالاحتكام إلى عقله القاصر والانقياد إلى أهوائه وغرائزه، فإن عملية الاستخلاف ستختل وتضطرب ، وتنحرف عن هدفها المرسوم، وتعاكس الفطرة الإنسانية. ذلك أن الإنسان مهما وصل إلى مستويات عالية من التطور المدني والعمراني، وحقق ما يصبو إليه من الرفاهية والرخاء، يظل -مع ذلك كله- مفتقراً إلى شيء حميم ضاع منه في غمرة انشغاله بمطالبة المادية، يتجلى في شعور مرير بالقلق والاضطراب والحيرة التي تعصف به، وحياة الشقاء التي تنغص عليه الاستمتاع بما حشد لنفسه من متع وملذات.

وهذا شعور فطري يظهر ويلح على صاحبه كلما أهمل الإنسان أشواقه الروحية وركز همه على تلبية حاجاته المادية، متناسياً أنه كائن ذو شقين، فتنتكس حياته، ويشقى بوجوده على الرغم مما يحيط به من أسباب الراحة ووسائل النعيم، وقد ثبت بالتجربة-التي ما فتئت تتكرر مع بني آدم على مر العصور وتوالي الأحقاب -أن الإنسان كلما ابتعد عن الهداية الإلهية، وقطع

---

(١) النور: ٥٥.

(٢) الأنبياء: ١٠٥.

حباله بخالق الكون، كلما ذاق ألوان الشقاء النفسي، والعذاب الروحي الذي يتولد من خوفه على ذهاب العمر، وجريه وراء المطامع، وحذره من فقدان ما في يده، وحسرته على ما قد يفوقه من مكاسب مادية، ومتع حسية، ورغبته الجامحة في الاستيلاء على كل شيء، فكل هذه المشاعر تسلبه الطمأنينة والاستقرار والراحة النفسية العميقة التي يحسها المؤمن في رحاب الله، وهذا ما يشير إليه القرآن الكريم، عندما بين لآدم وذريته أن سعادتهم وشقاءهم مرتبطان بمدى التزامهم بمنهاج السماء أو ابتعادهم عنه في قوله تعالى: ﴿فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى، ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى﴾[1]، والمعيشة الضنك هي: «الضيقة الشديدة بمشكلاتها وهمومها، وبما تحيط به الأنفس والصدور من ضواغط مؤلمة مضجرة، ولو كان الإنسان موسَّعاً عليه في الرزق»[2].

والحضارة الغربية الحديثة من أكثر الحضارات تجسيداً لهذا الاختلال بين الجانب المادي والروحي، حيث طغت على جميع مظاهرها الصبغة المادية الجافة بإقصائها للدين وتأثيراته من الحياة اليومية للفرد الغربي، مما أدى إلى تحلل تام من الاعتبارات الدينية والقيود الأخلاقية، وانطلاق عارم للشهوات من معاقلها، وتمزيق لشبكة العلاقات الاجتماعية، وتفكك عرى الأسرة، وجفاف العواطف الإنسانية، وميل الناس الجارف إلى اكتساب المال، والعبّ من اللذات الحسية، يحدوهم شعور قوي بضرورة اغتنام كل فرص الحياة، والاستماع بها قدر المستطاع لإحساسهم بمحدودية أعمارهم، وارتباط وجودهم بالحياة الدنيا فقط.

وعلى الرغم من كل ما أحاط به الإنسان الغربي نفسه من وسائل الرفاهية والترف، وما جمع من ثروة، وما نال من متع، إلا أن النتيجة لم تكن سعادة، واطمئناناً، واستقراراً، وراحة بال باعتبارها الغاية التي يسعى إليها كل إنسان، وإنما كانت -على العكس من كل ذلك- خواء روحياً رهيباً، ولد أمراضاً عصبية ونفسيه، وإقبالاً جماعياً على الانتحار، وإصابات كثيرة بالجنون،

(١) طه: ١٢٣، ١٢٤.

(٢) الميداني. عبدالرحمن حسن حبنكة، كواشف زيوف، ص٥٥٧، ٥٥٨

وانتشاراً واسعاً لعيادات الطب النفسي، لأن هذه الحضارة التي سارت شوطاً بعيداً في تطبيق المناهج العلمية التجريبية على الحياة الإنسانية، قد أغفلت تماماً الخصائص الإنسانية الأصيلة التي تفرق الإنسان عن الآلة والحيوان[1]. وأسقطت من حسابها أنها تتعامل مع كائن حي ذي شقين متكاملين هما الجسد والروح، ولا يمكن أن تسقيم حياته، ويشعر بالتوازن والانسجام إلا إذا كان تقدمه المادي مساوياً وموازياً تماماً لترقيه الروحي.

وكما أن التمرد على منهج الله يؤدي إلى الحرمان والشقاء، والتعاسة، فإن عدم فهم قيم الوحي الرباني فهماً صحيحاً، وعدم استجلاء مقاصدها على وجهها الحقيقي يؤدي كذلك إلى الخلل والاضطراب والفوضى.

ومن مظاهر هذا الخلل: المبالغة في الزهد، والتطرف في أداء الشعائر التعبدية، وإهمال حركة العمران في الأرض بحجة ترقية الروح وتخليصها من آثار الغرائز الجسدية والميول المادية، والانسحاب من الحياة بدعوى التقشف، وتصفية النفس من الطمع، كما فعلت التيارات الروحية، والمذاهب الإشراقية التي آثرت الهروب من ميدان الحياة، واعتزلت في المغارات والخلوات، واختارت البطالة والكف عن السعي، واحتقرت الدنيا وطيِّباتها، وذمت العمل والكدح. واستفحل أمرها، وزاد خطرها بعد أن انتقلت هذه التصورات الخاطئة والأفكار المريضة من أشخاص فرادى إلى قطاعات واسعة من الناس، ثم ما لبثت أن غزت مجتمعات بأكملها انكفأت على نفسها، وتقوقعت داخل ذاتها، فأصابها الشلل، وتحنطت طاقاتها الذهنية والنفسية، وتوقفت فيها الحركة والإبداع، وماتت مشاعر الإقبال على الحياة، كما وقع للأمة الإسلامية في عصر الانحطاط، والتي غاب عن وعيها«أن من فصل الدين عن الدنيا ومضى لينفذ أوامر الله- فيما يزعم- في كهوف قاصية، لا يتعرف على شيء من المسؤوليات الاجتماعية، والخدمات الإنسانية، وسبل عمارة الأرض، فقد عصى الله فيما قد ألزمه وشرفه به من مهام الخلافة في الأرض والأمر بعمارتها، وإقامة شرعة الله عز وجل في جنباتها»[2].

(١) قطب. سيد، الإسلام ومشكلات الحضارة ، ص٧ ، ٨.

(٢) البوطي. د. محمد سعيد رمضان، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، ص٣٣.

فكل هذه الانحرافات تؤدي بشكل مباشر إلى تعطيل عملية الاستخلاف وانحرافها عن مسارها الطبيعي، ومعاكسة الفطرة الإنسانية التي أراد لها خالقها أن تنحو نحو الوسطية والاعتدال والتوازن بين المادة والروح، فكان كل تطرف نحو جانب على حساب الآخر، يشكل خطورة كبيرة على إنسانية الإنسان، وصيرورة حياته فوق الأرض.

وبذلك يبقى الإسلام هو المنهج الوحيد الذي يمكّن الإنسان من القيام بأعباء الاستخلاف في عالم الشهادة لانسجامه مع الفطرة التي فُطِرَ الناس عليها: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾[1].

العلم مفتاح الاستخلاف:

لقد ارتبط العلم بالاستخلاف منذ أن خلق الله سبحانه وتعالى آدم عليه السلام، وقضى أن يكون خليفته في الأرض، فعلق نجاحه في أداء الأمانة التي أنيطت به بمدى انسجام حركته الاستخلافية -سواء الإيمانية أو العمرانية- مع أبجديات العلم الذي جعله الله أساس الحياة الكريمة ومفتاح أسرار الوحي والكون معاً.

وحتى يتمكن الإنسان من ناصية العلم، زوده الله بالعقل الذي يعد الميزة الخاصة والنعمة العظمى التي تفرد بها دون سائر المخلوقات، وكانت سبباً للتكريم والتشريف والتفضيل الذي حظى به في الحضرة الإلهية وعلى مرأى ومسمع من الملائكة والجن.

والعقل هو الجهاز العجيب الذي يمكن الإنسان من تخزين المدركات الحسية الكثيرة التي تستقبلها حواسه كل لحظة، وبه يستطيع أن يقوم بعمليات التذكر، والتخيل، والتحليل، والملاحظة، والاستقراء، والمقارنة والاستنتاج، والترتيب، والتجربة. وبه يستطيع أيضاً أن يوجد العلاقات بين المقدمات والنتائج، وأن يفهم ويستوعب ما يصدر عن العقول الأخرى، وأن يدرك المفاهيم المجردة

(١) الروم: ٣٠.

الغائبة عن حواسه.

ومن خلال هذه العمليات العقلية الكثيرة يصل الإنسان إلي اكتساب العلم وتحصيل المعرفة التي جعلها الله المنفذ الوحيد لتحقيق عملية الاستخلاف في الأرض؛ لذلك كان التفكير المؤدي إلى العلم فريضة في الإسلام كما ذهب إلى ذلك عباس محمود العقاد.

فبالعلم وحده يستطيع الإنسان أن يفهم معاني الوحي، ويدرك مقاصده، ويتفهم حقائقه، ومن ثم يبني عبوديته لله على أساس صحيح من المعرفة. قال تعالى: ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾[1]، فالآية تجعل العلم أساس العقيدة ، وعليه تنبني العبادات، والأعمال والأقوال، تماشياً مع سنة الله التي ترفض الأهواء والظنون والخرافة، قال ابن المنير: « أراد به أن العلم شرط في صحة القول والعمل ، فلا يعتبران إلا به، فهو متقدم عليهما، لأنه مصحح للنية، المصححة للعمل»[2].

لذلك حمل القرآن على المقلدين الذين يعطلون عقولهم، ويجمدون حركة تفكيرهم، قال تعالى: ﴿إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون﴾[3] ، وقول تعالى: ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾[4] وهذا لكي يتحرر الإنسان من تأثير العقل الجمعي، وما يحمله من التعميمية الخاطئة ومن ضغط التصورات الاجتماعية المنحرفة.

وبالعلم أيضاً يستطيع الإنسان أن يكتشف أسرار الطبيعة، ويميط اللثام عن أسباب تفاعلها، وعوامل حركتها، حتى تتم عملية التسخير بشكل صحيح، وتثمر نتائج صحيحة تجنب الإنسان مخاطر الاصطدام بسنن الطبيعة

---

(١) سورة محمد: ١٩.

(٢) ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج١، ص١٣٠.

(٣) الأنفال: ٢٢.

(٤) البقرة: ١٧٠.

القاهرة: ﴿ يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان﴾[1]

ونظراً لهذه المكانة المتميزة التي يختص بها العلم في حياة الإنسان، كان احتفاء القرآن به كبيراً، حيث احتلت المسألة العلمية مساحة ملحوظة في خطابه. ولعل مما يبرز بقوة ووضوح أهمية العلم في القرآن، أن الآيات الأولى التي نزلت منه على رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت إعلاناً عن ميلاد هذه الدعوة إلى العلم، والتي تعد بداية لمرحلة جديدة في تاريخ الحضارة الإنسانية، أساسها المعرفة التي تستبعد كل أنواع الخرافة والظن، وتعيد للعقل وظيفته الحيوية: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علّم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم﴾[2]

قال ابن كثير في تفسير هذه الآيات: «فإن من كرم الله تعالى أن علم الإنسان ما لم يعلم ، فشرفه وكرمه بالعلم، وهو القدر الذي امتاز به أبو البشرية على الملائكة. والعلم تارة يكون في الأذهان، وتارة يكون في اللسان، وتارة يكون في الكتابة بالبيان: ذهني، ولفظي، ورسمي... وفي الأثر: «قيدوا العلم بالكتابة» وفيه أيضاً «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يكن يعلم»[3].

وقد جاء الإعلان عن هذه الدعوة إلى العلم في أول لحظة من لحظات الرسالة الأخيرة للبشرية ، في صيغة الأمر مرتين ، لتحث الإنسان وتلح عليه بالقراءة والتعلم، مبينة أن المصدر الحقيقي للمعرفة هو الله تعالى، هذا مع أن النبي الذي نزلت عليه لم يكن كاتباً ولا قارئاً، وكذلك قومه.

كما قرر القرآن الكريم قاعدة كلية عامة تحكم علاقة الإنسان بالله والطبيعة والحياة، وهي التي تتجلى بوضوح في قوله تعالى: ﴿ولا تقف ما ليس لك به

---

(١) الرحمن: ٣٣

(٢) العلق: ١-٥.

(٣) الرفاعي . محمد نسيب، تيسير العلي القدير لاختصار تفسير بن كثير ،ج٤، ص٥٣٣

علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا﴾[1] ففي النهي عن اتباع ما لم يثبت بالعلم، يجعله هو الإمام المتبع في الحياة سواء في الأقوال أو الأفعال، أو المعتقدات[2]، وينبه الإنسان إلى المسؤولية الجسيمة الملقاة عليه حال استعمال عقله، وحواسه، في اقتفاء أثر السبيل القويم، والمنهج الرشيد، وحال تعطيلهما والانسياق وراء الخرافة والدجل، والأهواء المنحرفة، والانقياد الأصم لمواريث الآباء والأجداد.

فالعقل والحواس جميعاً مسؤولة، وهي تشترك كلها في تحمل تبعة التفكير، والتمحيص والفرز والانتقاء وتمكين الإنسان من التمييز الصحيح للوصول إلى الحق بالعلم، وهذا ما يميزه عن الأنعام﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً﴾[3] وتتوالى الآيات القرآنية على هذا النسق لتؤكد مرة تلو الأخرى: «إن السمع والبصر والفؤاد جميعاً هي التي تعطي للحياة الإنسانية قيمتها وتفردها، وأن الإنسان بتحريكه هذه القوى والطاقات، بفتحه هذه النوافذ على مصراعيها ، باستغلاله قدراته الفذة حتى النهاية، سيصل قمة انتصاره العلمي والديني على السواء، لأن هذه الانتصارات ستبوئه مركزه المسؤول سيداً على العالمين، وخليفة الله في الأرض، وأنه بتجميد هذه الطاقات وقفل نوافذها، وسحب الستائر والأغشية عليها، يكون قد اختار بنفسه المنزلة الدنيا التي ما أرادها له الله يوم منحه نعمة السمع والبصر والفؤاد . . منزلة البهائم والأنعام﴿أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم﴾[4]»[5].

يقول الإمام الجصاص معقباً على الآية الكريمة:﴿ولا تقف ما ليس لك به علم﴾ مؤكداً على الأهمية الخاصة التي يوليها القرآن للعلم «لا تقل سمعت ولم تسمع، ولا رأيت ولم تر، ولا علمت ولم تعلم، وقد اقتضى ذلك نهي

---

(١) الإسراء :٣٦.

(٢) ابن باديس. عبدالحميد ، مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ص١٥٤.

(٣) الإنسان: ٢.

(٤) سورة محمد: ٣.

(٥) خليل. د.عماد الدين، حول إعادة تشكيل العقل المسلم، ص٥٨، ٥٩

الإنسان عن أن يقول في أحكام الله ما لا علم له به على جهة الظن والحسبان، وأن لا يقول في الناس من السوء ما لا يعلم صحته، ودل على أنه إذا أخبر عن غير علم فهو آثم، كذباً كان خبره أو صدقاً، لأنه قائل بغير علم وقد نهى الله عن ذلك»[1].

من هنا جاء التنويه بالعلم، والدعوة الصريحة إلى التعلم والتعليم، وإعلاء مقام العلماء العاملين: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾[2]، مما يؤكد أن كل شيء في الإسلام ينطلق من العلم ويتم به﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾[3] ويحث القرآن على طلب العلم وأخذه عن الراسخين فيه﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾[4]، ويلفت الأنظار إلى أن العلم هو الذي رفع الإنسان في درجات الكمال حتى ساوى الملائكة في الشهادة لله بالوحدانية ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط﴾[5] وأقسم الله بأدوات الكتابة كالقلم والكتاب ليرشد المسلمين إلى أهميتها في اكتساب العلوم والمعارف التي تمهد السبيل لبناء قاعدة الحضارة الإنسانية القوية.

وفي قصة موسى عليه السلام الذي لم يقنع بعلم النبوة، وراح يستزيد من علم الله، على يد العبد الصالح، ويضع نفسه تحت تصرفه لينتفع به ويتعلم منه، عبرة لتواضع طالب العلم، وإشارة قوية إلى قيمة العلم ﴿فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما، قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمني مما عُلّمت رشدا﴾[6].

أما الآية التي يتجلى فيها بوضوح الارتباط العميق بين العلم والمهمة

---

(١) الجصاص. أبو بكر أحمد، أحكام القرآن، ج٥ ص٢٩.
(٢) المجادلة: ١١
(٣) الزمر: ٩
(٤) النحل: ٤٣.
(٥) آل عمران: ١٨.
(٦) الكهف: ٦٦,٣٥.

الاستخلافية فهي قوله تعالى: ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾[1]، فمضمون الآية يوحي بأن الله قد زود الإنسان بالعقل والعلم منذ فجر ميلاده، لكون العلم شرطاً ضرورياً للقيام بأعباء الاستخلاف ، لذلك كانت المعرفة هي السر الكبير الذي أودعه الله في الإنسان ، وهي جوهر الاستخلاف ، الذي استوجب التكريم والتفضيل، وبحيازته صار آدم مسجوداً له وصارت الملائكة ساجدة ، مما يدل على أن الله قد مكن الإنسان-منذ أول يوم- بالقدرات العلمية، التي تيسر له أداء مهمته الاستخلافية، وكانت بدايات المعرفة الإنسانية تتمثل في «الأسماء» التي علمها الله لآدم.

وقد اختلف العلماء في تفسير هذه الأسماء، غير أن معظم التفاسير تجمع على أنها نوع «من العلم الكلي بطبيعة العالم الذي سيحيا فيه آدم وذريته من بعده، أو هي فكرة مجملة عن العالم لكي يتمكن آدم وذريته من فهمه، والتعامل معه تعاملاً إيجابياً»[2]، كما تعني أيضاً: ما تهيأ في فطرة الإنسان من استعداد لاكتساب العلم ومعرفة الأشياء بالبحث والاستدلال[3] وتتضمن كذلك معاني القدرة على التعلم واكتساب المعرفة، وامتلاك القابلية لاستيعاب جميع العلوم التي قدر الله سبحانه أن الإنسان سيحتاجها في هذه الأرض.

والعلم الذي يدعو إليه القرآن، ويحث للإقبال عليه، والتزود منه ، وعدم الاقتناع بقدر معين، بل المثابرة على طلبه مهما طال به العمر: ﴿وقل رب زدني علما﴾[4]. يكتسي مفهوماً واسعاً يستغرق جميع جوانب حياة الإنسان، سواء ما اتصل منها بجانبه الروحي، أو الإنساني، أو الطبيعي، ولا ينحصر في الجانب الديني كما يتوهم بعض الناس، الذين يرون أن القرآن يدعو المسلم إلى الأخذ بعلم الشريعة فقط والتنكر لكل ما سواه.

وعليه، فإن العلم في القرآن يغطي بشموليته ثلاث دوائر أساسية تتكامل

---

(١) البقرة: ٣١.

(٢) كنعان. د.أحمد محمد، أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق، ص٥٠ ، ٥١

(٣) رضا. محمد رشيد. تفسير المنار، ص٢٦٢، ٢٦٣.

(٤) طه : ١١٤.

فيما بينها، وهي: علم الغيب، علم الطبيعة، وعلم السير في الأرض. واستناداً إلى الخطاب القرآني فإن نظرية المعرفة في الإسلام تقوم على ثلاث مصادر هي: الوحي، والعقل، والحواس، فالعقل والحواس وسيلتان ذاتيتان للإنسان، أما الوحي فمصدره خارجي[1]، وهو يتنزل من عند الله لينقل له الحقيقة، وتتضافر هذه المصادر لتحصيل مختلف هذه العلوم، وفيما يلي بيان مختصر لكل علم:

(أ) فعلم الغيب هو الذي يمكن الإنسان من معرفة كليات هذا الوجود، وموقعه منها، وهو الذي يعطيه تفسيراً مقنعاً لغاية خلقه، ومكانته في هذا العالم، وعلاقته بما وراء الوجود ، ومصيره بعد الموت، وهو الذي يمنحه تصوراً سليماً عن الأمور المغيبة عن عقله وحواسه، والتي تعد معرفته بها ضرورية لتحقيق توازنه العقلي والنفسي،وإلا أصبحت حركته في هذه الحياة لا دليل لها ولا غاية، مما يورثه البلبلة والاضطراب والحيرة والخوف[2]، لأن طبيعة الإنسان ميالة بفطرتها إلى التطلع نحو الغيب ومعرفة كلياته، وعلى أساس هذا العلم يبني الإنسان حياته، ويحدد أهدافه ويوجه سلوكه، ومن ثم تختلف نتائج سعيه في الأرض اختلافاً جوهرياً تبعاً لطبيعة العلاقة التي تربطه بعالم الغيب.

والمصدر الوحيد الذي بإمكان الإنسان أن يستمد منه علم الغيب هو الوحي الصحيح الذي يصله عن طريق الرسل والكتب السماوية، والذي ينبئه عن صفات الله وأسمائه، وعن الملائكة والجن والشياطين والجنة والنار، والبعث والنشور، واليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب وما إليها. وهو العلم الذي استأثر به الله، وأخرجه من مجال النظر والتفكر، وجعل العقل عاجزاً عن الخوض فيه، لحكمة يعلمها وحده، وقصد به هداية الإنسان، وتكميل إدراكاته بتحديد غايات الحياة الرشيدة، ومسؤولياته في هذه الدنيا، قال تعالى: ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول﴾[3].

---

(١) النجار. عبدالمجيد :«الإنسان في القرآن» . الموافقات ج٣،جوان ١٩٩٤ ص٥٢

(٢) أبو سليمان. د. عبدالحميد، أزمة العقل المسلم، ص١١٠.

(٣) الجن:٢٦، ٢٧.

(ب) أما علم الطبيعة فميدانه عالم الشهادة، وهو يشمل كل ما يستطيع الإنسان إدراكه بحواسه وعقله، وحتى يتمكن من استيعابه معرفياً جعله الله محكوماً بسنن وقوانين ثابتة لا تتبدل ولا تتحول، ماضية في ضبط حركته وتنسيقها بدقة، وجعل كل شيء في الكون محسوباً ومقدراً، ودعا الإنسان إلى النظر فيه، والتفكر في مخلوقاته وظواهره، والسعي في مناكب الأرض لاكتشاف سننه وقوانينه، ثم تسخيرها للانتفاع بها في تلبية حاجاته الأساسية، والاستمتاع بخيراتها، واستغلال مصادر الرزق الوفيرة التي تزخر بها جنبات الأرض، والتي تزداد ثراء وتنوعاً كلما ازداد الإنسان توغلاً في معرفة أسرار الطبيعة وقوانينها، واستناداً إلى هذا العلم الذي يحصله الإنسان باستعمال عقله وحواسه يتمكن من عمران الأرض وبناء الحضارات.

وفي القرآن الكريم حشد هائل من الآيات التي تحث العقل على التحرك للتأمل والتفكر، وتستنفر الحواس لتجول في الكون. قال تعالى: ﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه. أنَّا صببنا الماء صباً .ثم شققنا الأرض شقاً .فأنبتنا فيها حباً. وعنباً وقضباً. وزيتوناً ونخلاً .وحدائق غُلبا. وفاكهة وأبّا﴾[1]

وقال عز وجل: ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت. وإلى السماء كيف رفعت. وإلى الجبال كيف نصبت. وإلى الأرض كيف سطحت﴾[2] ﴿فلينظر الإنسان مم خلق﴾[3].

(ج) وعلم السير في الأرض هو الذي يقابل مصطلح العلوم الاجتماعية والإنسانية في العصر الحديث، وقد جعله القرآن مجالاً خصباً من مجالات البحث والدراسة عندما وجه الإنسان -من خلال الآيات الكثيرة- إلى دراسة حركة العمران البشري والحضارات الإنسانية، وذلك بالتنقيب عن آثار الأمم البائدة للاطلاع على أسباب نهوضها، وعوامل سقوطها، والوقوف على سيرها وممارساتها السياسية والاقتصادية، والاجتماعية، في سبيل التوصل إلى

---

(١) عبس: ٢٤-٣١

(٢) الغاشية: ١٧ - ٢٠.

(٣) الطارق: ٥.

السنن المطردة التي تحكم الأنفس والمجتمعات ، والتي تتكرر نتائجها كلما تكررت مقدماتها مما يتيح للإنسان فرصة الاستفادة من التجارب الإنسانية، وأخذ العبرة منها لبناء حركته الحضارية على أسس متينة يراعى فيها عدم الوقوع في الأخطاء التي وقع فيها السابقون حتى يتجنب المصير الذي تعرضوا له، والعقاب الرباني الذي لحقهم جراء انحرافهم عن منهج الله.

والآيات القرآنية التي تؤكد عدم فوضوية المسيرة الإنسانية وعدم عبثيتها كثيرة، وهي كلها تلحُّ على الإنسان أن يتناول التاريخ البشري بالدراسة والتمحيص ليقف على السنن التي تحكمها وتوجهها، قال تعالى: ﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾ [1]، وقال سبحانه: ﴿قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين. هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين﴾[2]. وقال عز وجل: ﴿أولَم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وآثاراً في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق. ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب﴾[3]

إن الآيات القرآنية الكثيرة التي تحدثت عن العلم، والتي تجاوزت (٧٥٠) آية، قد هيأت التربة الصالحة للبحث العلمي والدخول المعرفي والتساؤل والجدل ، وأوجدت مناخاً علمياً أطلق سراح العقل من كل ما كان يكبله من أساطير وخرافات واعتقادات شاذة، وأفكار ميتة ، واستبدل كل هذا الركام بتصور صحيح لله والكون والحياة، ومن ثم استطاع الإنسان المسلم أن يندفع - بهذه الروح الجديدة- إلى شتى مجالات العلوم والمعارف، ويحدث -في هذا الجو العلمي الصالح - حركة حضارية رائعة، أعادت للإنسان قيمته وكرامته، وحققت له توازنه النفسي والعقلي، فقام بوظيفة الاستخلاف على أكمل الوجوه، وهذا ما يبدو جلياً في عصور الحضارة الإسلامية الزاهرة.

---

(١) الأحزاب: ٦٢.

(٢) آل عمران: ١٣٧، ١٣٨.

(٣) غافر: ٢١ ، ٢٢.

وبعد، فهذه قراءة سريعة في وظيفة الاستخلاف في القرآن الكريم، وما تكتسبه من دلالات وأبعاد حضارية مختلفة، تفيد كلها في أن الله سبحانه وتعالى عهد للإنسان في هذه الأرض بأن يقوم بمهمة الاستخلاف في إطار العبودية الشاملة لله تعالى، ووفق المنهج الرباني الذي جاءت به الرسل والكتب السماوية، وجعل مفتاح كل ذلك العلم الذي يمكن الإنسان من فقه أسرار الوحي، وامتلاك ناصية الكون، واكتشاف قوانين التسخير.

قائمة المصادر والمراجع

١ - القرآن الكريم

(أ)

- الإبراهيمي: محمد البشير.

٢ - عيون البشائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د. ط، د.ت.

- الأصفهاني: الراغب.

٣ - تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، تحقيق: د. عبدالمجيد النجار، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٨٨م، د.ط.

٤ - معجم مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: نديم مرعشلي، دار الكاتب العربي، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت.

- الألباني. محمد ناصر الدين

٥ - مختصر صحيح مسلم، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، د.ط، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.

(ب)

- ابن باديس: عبدالحميد

٦ - مجالس التذكير من كلام احكيم الخبير، جمع وترتيب وتعليق: توفيق محمد شاهين، ومحمد الصالح رمضان، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط٣، ١٣٩٩هـ ١٩٧٠م.

- البهي: د. محمد

٧ - الدين والحضارة الإنسانية، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط٢، ١٣٩٤هـ

- البوطي: د. محمد سعيد رمضان

٨ - منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، دار الفكر، دمشق، سوريا، د.ط. ١٩٨٥م.

(ت)

- ابن تيمية: تقي الدين
٩ - العبودية. دار لقمان للنشر والتوزيع، تونس ، د.ط. د.ت.

(ج)

- الجصاص . أبو بكر أحمد
١٠ - أحكام القرآن، دار المصحف ، القاهرة، مصر، د.ط، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.

(ح)

- ابن حجر العسقلاني. أحمد بن علي
١١ - فتح الباري بشرح صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان، د.ط، ١٤٠٢هـ.

- ابن حنبل. أحمد.
١٢- المسند، المكتب الإسلامي، بيروت ، لبنان، ط٢، ١٣٩٨هـ ١٩٨١م.

(خ)

- الخطيب . سليمان
١٣ - فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط٧، ١٣٩٨هـ ، ١٩٧٨م.

- ابن خلدون . عبدالرحمن.
١٤ - تاريخ ابن خلدون، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة ، بيروت، لبنان، د.ط. ١٩٨٦م.
١٥ - المقدمة، دار القلم، بيروت، لبنان، ط٥ ، ١٩٨٤م.

- خليل. د. عماد الدين
١٦ - آفاق قرآنية، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان ، ط١، يوليو ١٩٧٨.
١٧- حول إعادة تشكيل العقل المسلم ، كتاب الأمة، رئاسة المحاكم

الشرعية والشؤون الدينية، قطر ، ط١ رمضان ١٤٠٣هـ

(د)

- **دراز . د. محمد عبدالله**
١٨ - الدين ، طبعة السعادة، القاهرة ، مصر ١٣٨٩هـ.

- **دسوقي ، د. فاروق أحمد**
١٩ - استخلاف الإنسان في الأرض، دار الدعوة ، الاسكندرية، مصر، د.ط ، د.ت.

(ر)

- **ابن رشد، أبو الوليد محمد بن أحمد**
٢٠ - مناهج الأدلة في عقائد الملة، تحقيق : محمود قاسم، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة، مصر، ط ٣، ١٩١٩م.

- **رضا ، محمد رشيد:**
٢١ - تفسير المنار، دار المنار، ١٤ شارع الإنشاء ، القاهرة، مصر ، ط٤، ١٣٧٣هـ.

- **الرفاعي ، محمد نسيب**
٢٢ - تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير، دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت ، لبنان، ط٣ ، ١٩٨٠م.

(ز)

- **زكي، د.أحمد**
٢٣- مع الله في السماء، دار القلم ، بيروت، لبنان ، ط١ ، ١٩٨٣م.

- **الزمخشري، جار الله محمود بن عمر**
٢٤ - الكشاف عن حقائق التنزيل، تحقيق: محمد موسى، دار المصحف، القاهرة، مصر ، ط ٢، ١٩٧٧م.

(س)

-أبو السعود: محمد العمادي

٢٥ - إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، المطبعة المصرية، القاهرة ، مصر ١٣٤٧هـ .

- أبو سليمان : د. عبدالحميد

٢٦ - أزمة العقل المسلم ، دار الهدى، عيس طبلة ، الجزائر، ط٢, ١٩٩٢م.

(ش)

- الشاطبي ، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي

٢٧ - الموافقات: تحقيق : د.عبدالله دراز، دار المعرفة ، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت.

(ص)

- الصابوني: محمد علي

٢٨ - مختصر تفسير ابن كثير، دار القرآن الكريم، بيروت، لبنان، ط ٧ ١٤٠٢هـ ١٩٨١م.

- الصدر : محمد باقر

٢٩ - الإسلام يقود الحياة ، مطبعة الخيام ،قم ، إيران ، ط١ ، ١٣٩٩هـ

٣٠ - خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء ، سلسلة الإسلام يقود الحياة، رقم ٣، مطبعة الخيام ، قم ، إيران، ١٣٩٩هـ.

(ط)

- طبارة: عفيف عبدالفتاح

٣١ - روح الدين الإسلامي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط١٩، ١٩٧٩م.

(ع)

- ابن عاشور: محمد الطاهر:

٣٢ - التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر ، تونس، د.ط، ١٩٨٤م.

٣٣ - مقاصد الشريعة الإسلامية، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، د.ط، ١٩٧٨م.

(ق)

- القرضاوي: د. يوسف
٣٤- الإيمان والحياة، مؤسسة الرسالة ، بيروت، لبنان، ط ١٢، ١٤٠٨هـ ١٩٨٥م

- القرطبي: شمس الدين محمد بن أحمد
٣٥ - الجامع لأحكام القرآن، دار الكتاب العربي ، بيروت، لبنان، ط١ ١٣٨٦هـ ، ١٩٦٧م.

- قطب : سيد
٣٦ - الإسلام ومشكلات الحضارة، دار الشروق، بيروت، لبنان.
٣٧ - معالم في الطريق، دار الشروق، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت.
٣٨ - في ظلال القرآن، دار الشروق ، بيروت ، لبنان، ط٧ ، ١٣٩٨هـ، ١٩٧٨م.

- قطب : محمد
٣٩ - مفاهيم ينبغي أن تصحح، دار الشروق، بيروت ، لبنان ، ط٥ ، ١٤٠٨هـ ، ١٩٨٩م.

(ك)

- ابن كثير ، أبو الفداء إسماعيل
٤٠ - تفسير القرآن العظيم، دار الفكر، بيروت، لبنان، د.ط، ١٣٨٩هـ - ١٩٧٠م.

- كنعان : د. أحمد محمد
٤١- أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق، كتاب الأمة، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، قطر ، ط١، محرم ١٤١١هـ

- مالك بن أنس
٤٢ - الموطأ ، دار النفائس ، بيروت،لبنان، ط١٠، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م

- المودودي، أبو الأعلى
٤٣ - نظام الحياة في الإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت.

- الميداني : عبدالرحمن حسن حبنكة
٤٤ - كواشف زيوف ، دار القلم ، دمشق ، سوريا، ط٢ ، ١٤١٢هـ

١٩٩١م

(ن)

- بن نبي: مالك
٤٥ - شروط النهضة، ترجمة عبدالصبور شاهين ، دار الفكر، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت.
- نوفل : عبدالرزاق
٤٦ - المسلمون والعلم الحديث ، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، د.ط، ١٩٧٩م.

الدوريات

٤٧ - الموافقات ، ع٣، جوان ١٤٩٩٤، المعهد الوطني العالمي لأصول الدين، الجزائر.